تمهيد

لا يستطيع أحد قراءة كتاب الإسلاموفوبيا بدون أن تتملكه مشاعر البهجة واليأس والتي نادرا ما يحدث وأن تتزاوج.

البهجة لاكتشاف أن المسلمين العرب والأمريكيين يأخذون علي عاتقهم تحدي أحدث الأيديولوجيات المهيمنة القامعة، أي الإسلاموفوبيا، التي ترسخت بعمق، والتي يتولي هذا الكتاب تحليلها عن كثب.

بيد أن ثمة مشاعر يأس لتلك المعاناة القاسية وغير الضرورية التي يخبرها الملايين في داخل الوطن وفي الخارج، والتي لا يمكن لها إلا وأن تؤجج تلك المشاعر.

ذلك لأن هذا الكتاب فى جوهره هو نقد لاذع للإمبراطورية، ولكيفية خدمة الإسلاموفوبيا لأهداف الإمبراطورية، حيث إنها ما هى إلا أحدث موجات الذعر التى غمرت الذات الأمريكية وتغلغلت فيها.

ذلك لأنه فى أعماق الذات الأمريكية، فإن ثمة خيالاً مصاباً بجنون الارتياب والعظمة، وفقا لما جاء فى الكتاب الأخير لبارى سيكتور عالم النفس والذى ذهب إلى أن مفهوم «الآخر» قد استُغِل من أجل تنقية الهوية الأمريكية وإضفاء المثالية عليها، الأمر الذى يعمل على ترسيخ نموذج نحن/ هم المعيارى فى ثنائيات «الخير مقابل الشر» التبسيطية. يوضح لنا سيكتور مدى مرونة أسلوب التفكير هذا وإمكانية استخدامه لتحقيق أهداف متنوعة.

«حينما يُستدعى أحد أعمدة النموذج الأصلى لـ «الآخر» (كان الشيوعية سابقا وأصبح الآن الإرهاب)، يبدأ العمود الآخر (الجنس أو العرق) فى التشكل تلقائيا.

تجمع الهجرة، والتى لم تمثل قضية كبرى حتى ٩/١١، بين الاثنين. فى عام ٢٠٠٧، قال أحد نشطاء الحزب الجمهوري: قد يحضر بعض هؤلاء الناس إلى هنا للحصول على عمل فى غسيل الأطباق، فيما يحضر بعضهم لخطف الطائرات، لا أستطيع التمييز بين خوسيه كورڤو وبين عضو تنظيم القاعدة..» كان، بحديثه هذا، يؤطر القضية بحيث يؤكد على «الآخرية» لا على التوجهات الإجرامية. وفى نفس العام، طرحت مجالس الولايات التشريعية أكثر من ١٤٠٠ من قوانين إجراءات الهجرة، وهو عدد يفوق ما طرحته فى العشر سنوات السابقة».

كشخص قضى شبابه فى حركة «تحرير السود» فقد يعتقد البعض أنني، بصفتى هذه، لابد وأن أستخدم تلك الحقبة سيئة السمعة كمُناظِر تاريخى للعصر الحالى الذى يتسم بحملات الكراهية الإعلامية والثقافية والسياسية القومية المكثفة ضد العرب والمسلمين فى الداخل الأمريكى بل وفى كل أنحاء العالم.

لكنني لن أفعل ذلك؛ هذا لأنني لدى قراءتي هذا النص، لم يكن ذاك هو الزمن الذي ترددت أصداؤه في وعيي. هذا بالرغم من حقيقة أن الوقائع التاريخية تقول إن المسلمين الأوائل الذين حطّوا على شطآن هذا البلد وصلوا وهم مصفدون بالأغلال كجزء من شتات أهالي غرب إفريقيا الهائل والذين تم إحضارهم أسرى مكبلين إلى القارات الأمريكية.

لتجربة أيوبة سليمان ديالو، الأسيرة الإفريقية المسلمة والتي أُسِرت عام ١٧٣١[١] دلالالتها في سياق هذا التاريخ المخفي.

وعلى الرغم من أن القوى التي أُطلقت، وكما يصفها كتابنا هذا، مستمدَّة من أعماق منابع مشاعر عدم الأمان والعنصرية الأمريكية، إلا أنها تكاد تكون محاكاة لتجربة اليابانيين الأمريكيين في القرن العشرين.

آنذاك تمت شيطنة أناس، كان ينظر إليهم في وقت ما بصفتهم أمريكيين نموذجيين، وأعضاء صالحين في الجسد السياسي القومي بكل المعاني المتخيلة (على الرغم من عدم انتمائهم للجنس الأبيض)، شيطنتهم من خلال السياسيين والأصوات الإعلامية والمصادر الثقافية الأمريكية. أصبحوا نماذج لـ «الآخر» من ثم وُضِعوا خارج نطاق «الضمانات» التي يكفلها الدستور الأمريكي. افتُرِض أنهم خونة، ليس بسبب أي شيء فعلوه، لكن بسبب من هم.

في أعقاب الهجمات اليابانية على هاواي، قاومت مصادر الإعلام الأمريكية، في البداية، الدعوات إلى إساءة معاملة اليابانيين الأمريكيين.

لكن هذا لم يدم طويلا. يبين بيتر أيرنز، الأكاديمي القانوني، أنه لم يمض سوى بضعة أيام حتى ترددت أصداء الأصوات العنصرية في الوسائط الإعلامية بدعوات إلى ما كان، في جوهره، عقابا جماعيا، ثم تردد هذا في جميع الأوساط. وأصبح العقاب الجماعي سياسة دولة.

في اليوم الذي أعقب بيرل هاربور، رأت لوس أنچيلس تايمز أن غالبية اليابانيين «مواطنون صالحون» ولِدوا وتربوا هكذا.

(١) عن كتاب «عقيدة آبائنا» تأليف موميا أبوجمال، دار نشر ترنتون، ٢٠٠٣.

ثم بعد دعوة السياسيين من أمثال ليلاند فورد، عضو الكونجرس عن لوس أنچيلس، إلى وضع «جميع اليابانيين ، المواطنين منهم وغير المواطنين». فى معسكرات اعتقال بالداخل الأمريكي، غيرت لوس أنچيلس تايمز نغمتها وذلك لأن «مقتضيات الحرب» تتطلب مثل هذا الإجراء.

وجّه وولتر ليپمان، كاتب الأعمدة الذى كان يحظى بشعبية بين القراء، النقد إلى واشنطون «لعدم استعدادها» لاتخاذ إجراءات «الترحيل الجماهيرى والاحتجاز الجماهيري» لليابانيين الأمريكيين. بدا وستبروك بچلر، وكان أيضا كاتب أعمدة صحفية، مثل الدعاة إلى كراهية المسلمين ومروجى الخوف منهم الذين ينتمون إلى الحقبة الراهنة حينما كتب يقول «لابد من وضع اليابانيين فى كاليفورنيا تحت الحراسة المشددة على الفور لآخر رجل وامرأة منهم – ولتذهب إجراءات الاستدعاء والأمر بالمثول إلى الجحيم حتى انتهاء الخطر».

لم يشفع لليابانيين الأمريكيين أنهم لم يرتكبوا أية أعمال تخريبية ضد أمريكا بإطلاقه، بيد أنه، ووفقا لأسلوب التفكير المتحيز الأحمق الذى كان له أن يعاود الظهور فى زماننا هذا، فإن هذا البرهان على عدم فعل أى شيء، لم يكن سوى برهان على النوايا الخبيثة. ذهب چون چيه دوويت الجنرال الأمريكى فى «توصيته النهائية» التى أرسلها إلى هنرى إل. ستيمسون وزير الحرب، ذهب إلى الدرك الأسفل من العنصرية فى عرضه لأفكاره!

«إن حقيقة عدم حدوث أعمال تخريبية حتى تاريخه هى ذاتها باعثة على القلق ودلالة تؤكد أن مثل هذه الأعمال ستُرتكب.. إن الجنس الياباني جنس معَادٍ، وعلى حين أن الكثيرين من الجيلين الثانى والثالث من اليابانيين الذين ولدوا على الأرض الأمريكية ويحوزون على المواطنة الأمريكية قد «تأمركوا» فمازالت خصائصهم العرقية مستعصية على الذوبان».

لدى تحدثه أمام هيئة من الكونجرس فيما بعد، كانت ملاحظات الجنرال أكثر تحديدا وحيوية «الياباني هو الياباني؛ سواء كان مواطنا أمريكيا أم لا. ليس لدىّ ثقة فى ولائه على الإطلاق».

وعلى حين أنه من النادر وجود مسئول يتحدث بمثل تلك الصراحة اليوم، إلا

أنه ليس ثمة حاجة للذهاب بعيدا كى نجد جنرالا يشبِّه الحرب على العراق بالحرب المقدسة ضد الكفرة، أو نسمع عسكريين أمريكيين يشيرون إلى العرب/ المسلمين بأنهم بلهاء حمقي، أو يلقبون أحدهم بـ «الحاجي» أو يطلقون عليهم الكنية التى كانت سائدة فى مرحلة ريجان أى «زنوج الصحراء».

بيد أن هذا القياس ليس مُحكماً، إذ إن الهجمة التى شُنّت فى ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ كانت هجمة شنتها دولة قومية ضد دولة قومية أخري. لكن علينا أن نعترف أن المحكمة العليا فى قرارها الذى أصدرته آنذاك، لم تعارض تلك المعاملة التى كان يتعرض لها مواطنون أمريكيون، بل أضفت عليها الشرعية.

أما هجمات ٩/١١ فقد ارتكبها فاعلون لا ينتمون إلى دولة – بل إلى جماعة صغيرة لم يعرف عنها الكثير حتى آنذاك. وفى واقع الأمر، فإن الأمر يصبح لافتا جداً فى ضوء هذا العامل تحديدا؛ لأنه يوضح كيف أنه بإمكان البلدان العظيمة التصرف بأساليب لا تُعبر عن الجنون المحض، بمجرد تشجيع التحيزات والكراهية الشديدة وإطلاقها.

فى إنجلترا، الشريك التابع لأمريكا فى الكارثة بالعراق، تحدث أعضاء البرلمان بصراحة وعلانية على الأقل (بخلاف أعضاء الكونجرس فى الولايات المتحدة). قال السير بيتر تاسيل، عضو مجلس العموم، لزملائه بالبرلمان ما كان يعرفه معظم السياسيين وكادوا ألا يذكروه إلا نادراً: إن غزو الولايات المتحدة/ بريطانيا واحتلالها للعراق، دمَّر البلد الوحيد الذى لا وجود فيه للقاعدة، والتى لم تجرؤ على دخوله؛ وأن الغزو كان قائما على أساس الأكاذيب والأضاليل وتشويه الحقائق، وأضاف:

«نحن مسئولون مع أمريكا عن موت مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال العراقيين وتشويههم. لقد دفعنا بالطبقة الوسطى بأكملها إلى خارج العراق. فقد حوالى ٤ ملايين عراقى منازلهم ومواطنهم. توقفت إمدادات المياه والصرف الصحى وتم تدمير الخدمات الصحية التى كانت الأفضل فى الشرق الأوسط بأكمله».

من الواضح إذن أن للإسلاموفوبيا مغباتها الواقعية والمروعة، والتى يمكن للقوى

السياسية والنخب الاجتماعية إطلاقها حسب الرغبة لإحداث الدمار الهائل الدائم. أنهى السير پيتر حديثه بالقول «إن الهجوم على العراق كان أعظم خطأ استراتيجي ارتكبه الغرب منذ فشلنا فى سحق عسكرة الراينلاند عام ١٩٣٨. استمرت مغبات ذلك الفشل لسنوات عديدة، وبالمثل فإن مغبات هجومنا على العراق ستُستشعر لعقود قادمة».

حينما كانت الولايات المتحدة مازالت فى طور الطفولة والأمل، قام چيمس ماديسون بمساعدة توماس چفرسون بكتابة قانون الحرية الدينية لولاية ڤرچينيا، الذى يُعدّ سلف التعديل الأول فى الدستور الأمريكي. فى قانون عام ١٧٨٥ تم تبنى مبدأ الحرية الدينية، ونصّ على أنه ليس بإمكان العقيدة الدينية (أو اللاعقيدة) أن تؤثر بأى أسلوب فى «قدراتهم المدنية».

وبعد سنوات، ذكر چفرسون وهو يكتب عن قانون ماديسون إن المقصود به كان «أن يشمل فى إطار الحماية التى يوفرها لليهودى وغير اليهودي، المسيحى والمحمدى [مصطلح يعنى المسلم ينتمى إلى الفترة الكلونيالية]، الهندوسي، والكافر من جميع الفئات والطوائف».

وفيما أكتب هذا، تجنبت البلاد لتوها خوض معركة مصطنعة من النقاشات الخلافية بسبب ما دعا إليه الواعظ الإنجيلى اليمينى من حرق نسخ من المصحف فى ٢٠١٠/٩/١١. يقابَل بناء المسجد المقترح إقامته فى وسط المدينة بمانهاتن باعتراضات صاخبة واسعة المدى من أهالى نيويورك، الذين، وفيما يعترفون بأن للمسلمين الحق فى إقامة المبني، إلا أنهم يبدون قلقهم من تدنيس «الموقع المقدس» لـ ٩/١١.

ما الإسلاموفوبيا إلا أحدث فوبيا تستعر، كالحمي، فى الذات الأمريكية.

نعتقد أنها، هى الأخري، ستمضى فى طريقها وتختفى.

لكن مغباتها، كما يشير السير پيتر تاپسل، من حيث المعاناة البشرية، التى ستستمر لسنوات وسنوات قادمة، لا يمكن لنا حسابها أو تخيلها. «لكن. ولكن...».

تخيل أمًا يابانية أمريكية، كان ابنها يحارب فى وحدة قتالية أثناء الحرب، وقامت حكومتها باحتجازها فى معسكر اعتقال فى انتهاك تام وكلى للدستور الذى أقسم ابنها على الولاء له. وفضلا عن الخوف الحقيقى الذى تشعر به كل أم على ابنها، فما كانت أفكارها عن بلدها وقتئذ؟ اعتقدتْ أنه بلد أصيب بالجنون؟

لا تتغير الأشياء لمجرد أن الوقت يمر. لابد للحركات الاجتماعية والمنظمات الاجتماعية أن تضغط من أجل إحداث التغييرات فى مواجهة الأمر الواقع العنيد المانع.

لا يعرف سوى القلة فى الولايات المتحدة هذا بأفضل مما يعرفه الأفارقه الأمريكيون.

إن كتاب شيهى خطوة نحو ذاك المستقبل المختلف، حينما تُفهم الإسلاموفوبيا على حقيقتها، وحينما تُستوعب ويتم إدانتها وشجبها بصفتها ذاك السم الذى يشكل كنهها.

أمنياتى بأن يصل هذا إلى عقول كثيرة، وقلوب كثيرة.

موميا أبوجمال

تمهيد ٢

الإسلاموفوبيا وأساسات «الحضارة الغربية»

ماذا أعتقد بشأن الحضارة الغربية؟ أعتقد أنها ربما تكون فكرة جيدة جداً
موهانداس غاندى (١٩٣١)

في كتابه «الإسلاموفوبيا: الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين»، أمدنا ستيفن شيهي بمرشد مكثف عن تكوين أحدث المفاهيم السياسية/ الاجتماعية – الأمريكية – التي طورها الغرب من أجل تعزيز هيمنته علي المناطق الإسلامية – تعزيزها في الداخل والخارج – وتوسيع مداها. كان للعلاقات المبكرة بين الغرب والعالم الإسلامي، والتي تشكلت في ظل «الآخر» الإسلامي، أثرها ليس فقط علي جوهر «الحضارة الغربية» ذاته، بل أيضا أدت إلي الإمبريالية الغربية، ذلك المرض الاجتماعي الكارثي الذي مازالت ممارساته المدمرة تُنزل المعاناة بشعوب العالم اللاأوربية، المسلمين منهم وغير المسلمين.

مما لا ريب فيه، وبدون قدر كبير من المفارقة أو السخرية، فإن كتابات برنارد لويس وصمويل هنتنجتون الطنانة عن «صدام الحضارات»، وكما يبين شيهى فى دراسته المثيرة للفكر التى بين أيدينا، كانت النذير الذى مهّد لقدوم الموجة الجديدة، وإن لم يكن الشكل الجديد، من الإسلاموفوبيا. إن تصنيف الكاتب، ثاقب البصيرة، لـ «خطاب الحضارات» الذى يكمن فى جوهر الإسلام يجعل من الصعب أن نقرر ما إن كان من الأفضل وصف الظاهرة، التى يشار إليها باسم «الحضارة الغربية» [وهذا إرداف خلفي، أو جمع بين لفظين متناقضين] بدقة أكبر على أنها تزييف أم أنها وقاحة. وفى الحالتين، فقد ظلت دائماً أكذوبة خيالية. بل إن وضع أوربا الجغرافى ذاته، مجرد اختراع، فهى ليست قارة فى حد ذاتها – ناهيك عن كونها «القارة» كما ظل غالبية مدّعى المركزية الأوربية يسمونها منذ زمن طويل – إذ إن أوربا، المركز المكانى لـ «الغرب» – جغرافياً – ما هى «إلا شبه جزيرة متسعة غربى آسيا».

ثمة الكثير من الأباطيل أيضا فيما يقال عن مكانة أوربا الثقافية. إن أصل مصطلح «أوربا» ذاته يرجع إلى اللفظ الفينيقى erub، الدال على «مكان فى ظلام العالم السفلى» وعلى الجهل. ربما يكون من البديهى أن هؤلاء الذين كانوا يسكنون منطقة ظل ينظر إليها لما يربو على ألف عام على أنها لا تعدو أن تكون موضعا متخلفاً ثقافيا تلفه ظلمة الجهل، ولا علاقة له البتة بشئون المجتمعات المتحضرة، لابد لهم وأن يُكِنوا، فيما بعد، مشاعر الاستياء والحقد، وبنفس الدرجة، فمن المرجح أن تلك المشاعر قد أَججها حس لا يهدأ بالنقص الثقافى مضى يتعمق. وفيما قام «الغرب» فيما بعد بزعم أن أصوله الثقافية تعود إلى حضارة الإغريق القديمة، وقام، منذ القرن الثامن عشر صعودا، بتلفيق «طبخة» إثباتية معقدة مليئة بالتفاصيل قُصد بها تقديم «البراهين» على هوية الإغريق «الآرية»، فإن حقيقة الأمر هى أن اليونان الكلاسيكية، وسابقاتها، كانت أكثر ارتباطا، ثقافياً وچينياً، بمصر وبلاد الشام من

ارتباطها بأية منطقة فى الشمال. علاوة على ذلك، فقد كان يفصل بين ظهور الغرب وبين «سلفه» المزعوم [أى اليونان القديمة]، فترة زمنية استمرت عدة قرون بعد سقوط روما، «عصر مظلم» بحق، قامت أثناءه «الكنيسة، عن عمد، بقمع المعرفة الإغريقة الكلاسيكية [الوثنية]».

تم الحفاظ على الموروث الفكرى لليونان الكلاسيكية وتوسيع مداه، وتنقيحه، وبشكل حصري، من خلال الجهود الثقافية والعلمية العربية/ الإسلامية لمدة تربو على سبعمائة عام. كان للغرب أن يتعلم فى نهاية المكان كتابات أرسطو وأقرانه من خلال الجامعات الإسلامية العظيمة التى أقيمت فى قرطبة وطليطلة وبغداد ودمشق والقاهرة والمغرب وتونس وأصفهان والتى أنتجت كبار الفلاسفة من أمثال الفارابى (توفى ٩٥١). وابن سينا (٩٨٠ –١٣٧) وابن رشد (١١٢٦– ١١٩٨). وفى واقع الأمر، فإن الدور المفتاح الذى لعبه الفكر الإسلامى كان جليا فى مولد «الهوية الغربية» ذاتها، وهو شأن يعود إلى تتويج الإمبراطور شارلمان عام ٨٠٠م وما لازمه من إقامة «إمبراطوريته الرومانية المقدسة»، ذلك الكيان الذى يعرف أيضا باسم «العالم المسيحى الغربى».

وبما أن الهدف من تلك الممارسة كان هو توكيد سطوة ما أصبح يعرف فيما بعد بالكاثوليكية الرومانية على أرثوذكسيات العالم المسيحى المشرقى (أى بيزنطة) كان من الضرورى لـ «الكاثوليكية الرومانية» تمييز نفسها عن الأرثوذكسية البيزنطية على أسس لاهوتية. تم تحقيق هذا المطلب، إلى حد كبير، من خلال السطو على التأويلات الإسلامية للكتاب المقدس، دونما ذكر المصدر. وكما ذكر المؤرخ البارز ماكسيم رودينسون:

«أعطى ابن سينا الغرب اللاتينى نموذجا للتجميع الإبداعى بأن جمع بين بُعد الخلاص الدينى وقدرة الإله على الخلق، وكلاهما من أساسيات الفكر الكاثوليكى الروماني. وأبعد من هذا، فإن عمله يشير إلى أسلوب إبداعى من حيث إعادة النظر فى الروابط بين الله والعالم والإنسان من خلال إحاطته بنظريات أرسطو الخاصة بالمعرفة وتضمينها [فى تفسيراته].. لم يُضِف فلاسفة اللاهوت الغربيون سوى استخدام مصطلحات ابن سينا الإسلامية بما يتوافق مع الاستخدامات المسيحية. مثلا، قام روجر بايكون بتطبيق ما قاله ابن سينا عن الإمام المسلم، على البابا المسيحى».

وحتى فيما كانت تلك العملية مازالت قائمة، كان يجرى تدعيم أسس الإمبراطورية التى أقامها شارلمان وتوسيعها من خلال جهود خلفائه الكارولينيين باتباع نموذج شارلمان الذى كان يقوم على أساس الغزو، وإجبار «القبائل الوثنية» التى تقطن المناطق الواقعة غربى آخنا، عاصمة الإمبراطورية، وشمالها وشرقها على اعتناق المسيحية. تم اتباع وسائل ذرائعية متنوعة وتجربتها من أجل حسم المشكلة المتأصلة بشأن أفضل الطرق لتجسيد حس محدّد بهوية غربية على المستويات القاعدية الجماهيرية. تم العثور على الآلية التى من خلالها يمكن تحفيز الوعى بالهوية وإثارته حينما اتُخذ قرار شن أول حملة صليبية أثناء انعقاد مجمع كلارمونت الكنسى عام ١٠٩٥.

كان الهدف المُعلن لأول اجتياح غربى أوربى لـ «المشرق» هو «استعادة» الأرض المسيحية المقدسة من مالكيها العرب المسلمين. تفضح الحملة الصليبية الأولى ومعها الحملات الثمانى التى تلت الرغبات العارمة من جانب النخب الأوروبية الغربية البازغة للقيام بعمليات نهب شامل لمراكز التجارة المشرقية ذات العائدات المالية والثروات الهائلة مثل صور وعكا ويافا (المصادر المباشرة الوحيدة لحرير الصين الأسطوري، والشاى والتوابل وأيضا العاج، والأحجار الكريمة، والعطور، والفواكه الغريبة، وغير ذلك من الرفاهيات)، بل وأيضا للتحكم الكامل فيها. بيد أنه، فقد تم تحويل مسار ثلاث من الحملات الصليبية على الأقل: الرابعة (١٢٠٢ – ١٢٠٤)، والخامسة (١٢١٧– ١٢٢١)، والسابعة (١٢٤٨– ١٢٥٤) عن الذهاب إلى الأرض المقدسة، واستهدفت بدلا من ذلك غنائم القسطنطينية، ودمياط (مصر) الأكثر ثراء.

على نفس الدرجة من الأهمية من منظور تلك النخبة، هو أنه تم تنظيم الحملات كوسيلة لتعظيم المشروعية/ السلطة المتأصلة فى مفهوم البابوية الرومانية وتجسيدها على أرض الواقع، وبالتالى كمشروعية/ سلطة تراتبية النبلاء ممن يحظون بمصادقة البابا لممارسة أشكال علمانية من السلطة. يمكن قول الشيء ذاته أيضا عما أسمى بإعادة الغزو [الفتح] Reconquista، والذى كان نتيجته تقليص مساحة أراضى الأندلس الإسلامية متسعة الأطراف وجعلها تقتصر على المساحة المحيطة بغرناطة بحلول عام ١٢٤٩.

بالطبع..

بالطبع، كان المجهود الحربى العدوانى بأكمله يتوقف على تجنيد أعداد كبيرة نسبيا من عامة الناس وحشدهم بحيث يشكلون وقود تلك الحملات التى لم تكن سوى حرب عدوان. من ثم، كان من الضروري، وفى استعارة منا لمصطلح من كتاب رودينسون، «شيطنة» الذين كانوا يؤمنون بتعاليم الإسلام فى الوعى الشعبي، وكانت تلك عملية دعائية اضطلع بها رجال الدين بحماس لا يهدأ ولا تنطفئ جذوته. بلغت خبث محاولات ترسيخ تلك الصورة فى الوعى الشعبى درجة من الشر والكيدية بحيث، وخلال فترة قصيرة، أصبح من الشائع النظر إلى المسلمين،ليس فقط على أنهم أغراب، بل أيضا على أنهم خطر مهدد، بصفتهم «الآخر» الذين لا ينتمون إلى أشكال الحياة البشرية، ومن ثم، من الواجب، حرفياً، لا من الجائز فقط، القضاء عليهم.

وهكذا تجسّد سلوك «مقاتلى الرب» الذين شكلوا الحملات الصليبية التى شنها العالم المسيحى الغربى منذ اللحظة التى وطئوا فيها «الأرض المقدسة». مثلا، ووفقا للروايات التى عاصرت الحملة كتلك التى سردتها الأميرة البيزنطية آنا كومنتا مثلا، التى قالت فى وصفها لمسلك القوات الصليبية عندما استولوا على مدينة معرة النعمان وأعملوا القتل فى سكانها: «قامت قواتنا بغلىِ الكبار من الوثنيين فى أوعية الطهو. أما الأطفال فقد تم وضع أجسادهم فى أسياخ. وأكلوهم مشويين». تم تسجيل بشاعات مماثلة، رغم حدوثها على نطاق أقل فى نفس العام، فى مدينة نيقيا، وفى أنطاكية فى وقت مبكر من العام التالي. أيضا، واكب سقوط القدس فى يوليو ١٠٩٩ حدوث مذبحة شاملة لسكان المدينة المسلمين والمسيحيين لم ينج منها النساء والأطفال «فيما أوقع باليهود داخل معبدهم وتم حرقهم أحياء. مثّل هذا، فى رأى البابا پاسكال الثانى «الذبح المقدس».

عملية التطهير «النفسى» النفسى التى جسدتها تلك اللحظة التاريخية جلية ولافتة من حيث هولها وطبيعتها. كان الحس الجماعى بالذات الضرورى لتكوين الهوية الثقافية، غير موجود واقعيا فى «الغرب»، لكنه تلاحم فجأة، ليس كمدلول

إيجابى [مثبت] بل كسالب [نقيض]، أى موقف موحد من التمايز الواعى عن «الآخر» الإسلامي. بأبسط العبارات، تردّى هاجس الغرب القهرى بإلغاء سمو الآخر الإسلامى ليس فقط إلى حد القضاء على وجوده، كما حدث بالقدس عام ١٠٩٩ بل بانتحال الخصائص التى شكلت المكانة الأسمى للآخر، من خلال إدماج إنجازات الآخر فى مفهوم الغرب عن ذاته وتخيله لها. تمت عملية الإدماج هذه بأسلوب حرْفى لأقصى درجة ممكنة حينما أكل الصليبيون لحوم ضحاياهم المسلمين فى معرة النعمان، وعلى المستوى المجازى من خلال الاستيعاب الأوسع، والأكثر استدامة – أى التهام الفلسفة والعلوم والتكنولوجيا الإسلامية وهضمها.

وعلى الرغم من أن مثل هذا الاختلاس الفكرى كان قد بدأ بهدوء قبل ذلك بحوالى ثلاثة قرون كوسيلة لتمييز المسيحية الغربية عن منافستها البيزنطية، فإن السرقة إلى حد «الالتهام الثقافي» للحم الآخر لم تحدث حتى بداية الحروب الصليبية.

وبحلول القرن الثالث عشر، كان توماس الإقوينى وغيره من (المفكرين الغربيين) يقومون بوقاحة بسرقة أعمال الفلاسفة من أمثال ابن رشد بزعم أنهم «يفضحون زيفها».

وحقا، فإن منظرى الإسلاموفوبيا الذين يقوم شيهى بتفكيك مزاعمهم فى هذا الكتاب يتجاهلون عن عمد، أو ينكرون عن مكر وخداع، الإرث الإسلامى فى «الحضارة الغربية»، هذا على الرغم من الاعتراف واسع النطاق بما تدين به جميع المباحث الفكرية تقريبا للعلوم والدراسات الاجتماعية لذلك الموروث. وبالمثل، فقد تم التهام معظم المعرفة الرياضية والعلمية والمعمارية والهندسية التى أدت إلى ظهور ما يسمى بعصر النهضة [الميلاد الجديد Renaissance] فى الغرب، التهامها من الإسلام وهضمها. وفيما ظل المؤرخون الغربيون ينسبون المنهج الجبرى (علم الجبر) إلى عالم الرياضيات الإغريقى ديوفانتوس الذى عاش فى القرن الثالث الميلادي، فإن ابن موسى الخوارزمى هو الذى توصل إليه عام ٨٣٠م. وعلى مدى الأربعمائة عام التالية شهد ذلك المنهج تطورا على أيدى خلفاء الخوارزمي، بل إنه، وحتى القرن

التاسع عشر، فإن كثيرا من «الأفكار اللامعة» التى أُدخلت على هذا المنهج ونسبت إلى الرياضيين الغربيين، كانت مجرد إعادة صياغة للأساليب التى أتقنها العلماء المسلمون.

التّهَم الغرب إسهامات المسلمين فى التفاضل والتكامل وعلم المثلثات والفلك والهندسة اللاإقليدية، وابتلعها كاملة، ثم ادعى منذ آنذاك أنها من اكتشافاته. بل إنه حتى فى مجالات الدراسات المتقدمة المعقدة مثل نظرية الأرقام، فقد كان ابن هيثم، عالم الرياضيات العربى يطبق عام ١٠٠٠م ما أصبح اليوم يشار إليه على أنه «نظرية ويلسون» نسبة إلى چون ويلسون الإنجليزى الذى يُزعَم أنه اكتشفها عام ١٧٧٠. كان أول من توصل للنظام العشرى للكسور هو عالم الرياضيات الفارسى أبوالحسن الإقليدِيسى فى أواخر القرن العاشر، ثم قام خليفته چامشيد الكاشى بنقله إلى الغرب بعد ما يربو على القرون الأربعة، فيما كان الرياضى المغربى أبوبكر الحصار هو من اخترع أسلوب ترميز الكسور بوضع البسط أعلى والمقام أسفل والفصل بينهما بخط أفقي، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادي.

كان العالم الفارسى الموسوعى نصير الدين الطوسى هو من طور علم الفلك الإسلامى بدرجة كبيرة، لم يكتف بأن قدم البراهين على أخطاء بطليموس وما نجم عنها من حسابات مغلوطة، بل إنه، أتى فى عام ١٢٤٧ بنظرية تعرف باسم «مزدوجة الطوسى Tos,s Double» والتى تكاد تتطابق مع النظرية التى نشرها كوپرنيكوس فى عام ١٥٤٣. بل إن العالم ويلى هارتنر، اكتشف أن برهان كوپرنيكوس الرياضى على الفرضية كان هو ذاته الذى توصل إليه ابن الطوسى عام ١٢٦١ وأنه من الجلى أن كوپرنيكوس قد نسخه بدون أن ينسبه إلى صاحبه الأصلي. كان أحد أسباب تقدم المسلمين فى الرياضيات واستباقهم «الغرب» بكثير هو الأرقام العربية التى استخدموها – بما فى هذا الصفر الذى لم يكن معروفا فى أوربا حتى القرن الحادى عشر ولم يستخدم على نطاق واسع حتى القرن السادس عشر– والتى سهلت إجراء

العمليات الحسابية المعقدة وهو أمر كان من المستحيل إنجازه باستخدام الأرقام الرومانية. علاوة على ذلك، فإنه، وبدون الاستناد إلى الثورة العلمية التى أنجزها المسلمون لكان من المستحيل على الغرب تحقيق موروثه العلمى لأسباب أخرى كثيرة. بل فى واقع الأمر، فمن الممكن إرجاع أصول ما يعرف بالنهج العلمى ذاته إلى خطوات البرهان التى طورها ابن هثيم وابن زكريا الرازى حوالى عام ١٠٠٠م.

كان العلماء والأطباء المسلمون هم أيضا من اكتشفوا الأمراض المعدية، حيث تعرَّف ابن سينا على مرض السل كأحد أخطر تلك الأمراض وأكثرها شيوعا فى القرن الحادى عشر وطرح أسلوب الحجر الصحى لمنع انتشاره. ثم توصل، عن طريق الاستقراء إلى مفهوم علم الأوبئة بما فى هذا تحليل عوامل المخاطرة وفكرة التناذر [مجموعة الأعراض التى تظهر فى وقت واحد] واستخدامها فى أغراض التشخيص. ألف ابن سينا كتابه «القانون فى الطب» المكون من أربعة عشر جزءا وانتهى من إنجازه عام ١٠٢٥. كان مؤلَّفه هذا شاملا متقدما بدرجة أنه ظل أحد دعائم تدريس الطب فى الجامعات الغربية حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، فيما أن كثيرا من التطبيقات والممارسات التى أوردها فى «القانون فى الطب» – مثل التجارب [الاختبارات الإكلينيكية]، التجارب العشوائية المتحكم بها، اختبارات الفاعلية – مازال معمولا بها حتى يومنا هذا.

لم تكن منطقة جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا مصدر كثير من مفاهيم الغرب الطبية المفتاح فقط، بما فى هذا نظرية الجراثيم، بل كانت أيضا مصدر مؤسساته الطبية. كان أول مستشفى عام [بيمارستان] هو ذلك الذى أقامه هارون الرازى ببغداد عام ٨٠٥م، ومن هناك انتشرت المستشفيات سريعا فى أنحاء العالم الإسلامي، كذلك أيضا، فقد أقيمت أولى الصيدليات ببغداد فى مطلع القرن العاشر الميلادي، حيث اشتُرط على الأطباء والصيادلة، بداية من عام ٩٣١م، تلقى التدريس الرسمي، والحصول على الترخيصات المطلوبة كى يتعاطوا مع حوالى ٧٦٠ نوعا من النباتات

الطبية والعقاقير المشتقة منها، بما فى هذا مواد التخدير التى تستخدم فى العمليات، والتى صنفها ابن سينا فى مؤلفه «القانون فى الطب».

ومع إلمام الطب الإسلامى بالتخدير، أضحى إجراء العمليات الجراحية – بما فى هذا أشكال من جراحة الأعصاب – وفهم تشريح الجسد البشرى أكثر تقدما بكثير من أى شيء كان بمقدور الغرب فهمه واستيعابه. مثلا، كانت الأساليب التى وصفها الطبيب الأندلسى أبوالقاسم الزهراوى فى «المقالة فى عمل اليد على فن الجراحة» تُطبَّق كاملة فى أوربا لحوالى ستمائة عام. علاوة على ذلك، وبما أن الإنجازات الدوائية فى العالم الإسلامى كانت تستند إلى إلمام تام بعلم النبات والكيمياء، فقد شكل انتحال المعرفة الطبية الإسلامية وتملكها من قبل الغرب الأساس الذى قامت عليه «العلوم الغربية» فى تلك المجالات.

بل إن الفكر الإسلامى فى مجال الفيزياء استبق بقرون عديدة الفيزياء الأوروبية التى يقال إنها العلم الأوربى بامتياز. بحلول القرن الثامن الميلادي، كان جعفر بن الصديق العالم الموسوعى المولود بالمدينة المنورة قد قام بتفنيد فكرة أرسطو عن «العناصر الأربعة» [الماء والهواء، والنار والتراب]، بل من المرجح أيضا أنه قد أتى بنظرية أولية عن جزيئات المادة. وفى القرن التاسع، استبق عالم الفلك جعفر بن موسى بن شكير قانون نيوتن للجاذبية الكونية بنظرية نقحها ابن الهيثم فى القرن الحادى عشر وقام العالم الموسوعى أبوالفتح الخزينى بتوحيد أجزائها فى القرن الثانى عشر. أيضا، تم استباق قوانين الحركة لنيوتن التى عبر عنها لأول مرة عام ١٦٨٧، فى أعمال ابن الهيثم وابن سينا والعالم الأندلسى الموسوعى ابن باجه، والعالم العربى اليهودى أبوحمزة البغدادى الذى عاش فى القرن الثانى عشر. من الجدير بالذكر، أنه وعلى الرغم من نظرية نيوتن، فإن مفهوم ابن سينا العام عن كَميَّة التحرك مازال يطبق فى مجال الفيزياء.

من خلال الإنجازات التكنولوجية التى تمت فى العالم الإسلامى على مدى مئات

من السنين، تسربت إلى الغرب التوجهات العقلانية الجديدة. كان من المحال حدوث «النهضة الغربية» بدون الأسس التى وضعها العالم الإسلامى للعلوم المعمارية التطبيقية والهندسة. نُقلت الأقواس مستدقة الرأس وكذلك أساليب إقامة الأسقف المضلعة والمنحدرة، الأساسية فى المعمار القوطى وما تلاه من معمار باروكي، نقلت وانتُحلت مباشرة من النماذج الإسلامية فى بلاد المشرق العربى [الشام] والأناضول وصقلية وأيبريا. وبنفس الأسلوب، كانت التقنيات الإسلامية التى ابتكرها المسلمون، وبخاصة تلك المتعلقة بنقل المياه، وضخها، وخزينها، واستخداماتها فى الري، ومعها أنواع مختلفة من المحاصيل التى طورها علماء الزراعة المسلمون، كانت هى سبب ما أحرزه الغرب من تقدم زراعى قبل القرن السادس عشر.

وأخيرا، هناك ما يتعلق بالتكنولوجيا. مثلا عُرفت ساعات الحائط فى بغداد منذ عام ٧٥٠م، كما أنه كان من المحال إبداع النظارات بدون الفهم المصقول والمتقدم لعلم البصريات الذى وفرته قرون من أبحاث المسلمين فى هذا المجال. شاع استخدام ألواح الزجاج، والزجاج الملون على نطاق واسع فى المناطق الإسلامية قبل أول ظهور لها فى أوربا بوقت طويل جدا. فى عام ١٠٠م اخترع تساى لون الورق فى الصين، وفى عام ٨٣٠م، كان يصنّع بكميات كبيرة فى بغداد. وبالمثل، كان أول ظهور لآلة الطباعة فى الصين حوالى عام ٦٠٠م فيما اخترع بى شنج وليس رجل الطباعة الألمانى جوهان جوتنبرج الأحرف المتحركة عام ١٠٤١. استوعب المسلمون هذه الاختراعات وطوروها، وحصل عليها الغرب من خلالهم.

ينطبق الأمر ذاته على المدافع، والبارود الذى بدونه لم تكن ثمة جدوى للمدافع والبنادق. وعلى الرغم من أن الغرب بذل ما فى استطاعته لينسب اختراع البارود إلى روجر بايكون فى القرن الثالث عشر، فقد كان الصينيون هم من اخترعوه قبل ذلك بخمسمائة عام وأخذه عنهم المسلمون حوالى عام ١٢٤٠. ومع أخذ هذا التسلسل التاريخى فى الاعتبار، فالمرجح أن الصينيين أيضا اخترعوا المدافع حيث يرجع تاريخ

أول نموذج لها ظل موجودا إلى عام ١٢٨٨. من المحتمل أن تكون جيوش المسلمين والمخترعين منهم قد طوروا مثل تلك الأسلحة فى وقت سابق على هذا التاريخ إذ إن أسقف ليون ذكر استخدام قوات المسلمين لهذه الأسلحة فى إشبيلية عام ١٢٤٨، وكذلك ذكر ابن الحسن استخدامها فى معركة عين جالوت عام ١٢٦٠. ظهرت أول «صورة» للبندقية فى الغرب عام ١٣٢٦، وأول استخدام معروف لدينا للمدفع عام ١٣٤٦ فى معركة سرسى Crécy. والأرجح أن أول مدفع «غربي» كان قد تم شراؤه من مصدر إسلامي.

نجح الغرب فى تطوير البارود المُعمّر المحفوظ ذى الفاعلية الهائلة من خلال خلطه بالملح، ومن ثم، غدا يمتلك ميزة حاسمة على أعدائه. بيد أنه بدون تقنية تنقية الملح الصخرى التى كان الكيميائيون المسلمون قد اكتشفوها قبل ذلك بسنوات طويلة، ما كان للبارود المُحسَّن ليوجد كى يحفظ. وعلى أية حال، فأيًّا كانت الميزات التى حصل عليها الغرب من حفظ البارود وما رافق ذلك من تقدم فى صناعة الأسلحة، فإنها لم تكن كافية للتغلب على قوة العثمانيين الذين سدّوا عليه طرق الحصول مباشرة على سلع الصين وهندوستان [الهند] والتربح منهما. ظل هذا هو الحال حتى بعد هجمات المغول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر – والذين تحالف العالم المسيحى الغربى معهم – والتى دمرت، تكرارا، بغداد ومراكز الحضارة الإسلامية المشرقية الأخرى وتركتها خرابا.

تمكنت القوة العثمانية، مؤقتا، من تعويق رغبة القوى الأوربية المنذرة للتغلغل الأعمق فى آسيا. من ثم، أُجبر الغرب على تغيير وجهة محاولته. أثناء السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، حاولت البرتغال الالتفاف حول «العائق الإسلامي» بالإبحار جنوبا بمحاذاة الساحل الإفريقي، ثم شرقا عبر المحيط الهندي. بيد أنه لم يكن حتى عام ١٤٩٨ أن تمكن فاسكودا جاما من الوصول إلى كالكوتا عن طريق رأس الرجاء الصالح. لكن، فى تلك الأثناء كان بحار آخر يدعى كريستوبال كولون

(كولومبوس) قد فتح آفاق «عالم جديد» تماما فيما كان يحاول الوصول إلى «الشرق الأقصي» بالإبحار غربا. أوجدت المغامرتان طرقا ينفّذ الغرب من خلالها أسلوبه لافتراس النوع البشرى ونهبه بمدى لم يسبق لأحد تخيله. لم يقتصر الأمر على أراضى قارتين بأكملها- ثلاث قارات إذا أضفنا إفريقيا - غدت متاحة لهم فجأة كى يستولوا عليها، بل الأهم فى تلك اللحظة، كانت إتاحة موارد تلك القارات: الموارد البشرية والمعدنية والزراعية.

أدت النتائج إلى تحول تام وحقيقي. كان تدفق المعادن النفيسة إلى إيبريا من القارات «الأمريكية»، ذلك الاسم الذى أطلقه الغرب على نصف الكرة الأرضية الذى اكتشفه كولومبوس، كافيا لضمان قيام «الثورة الصناعية» فيما بعد. ولم تكن الأرباح التى اكتسبتها إنجلترا وفرنسا من خلال الاتجار فى العبيد والسُكّر، ثم القطن فيما بعد فى نهاية القرن الثامن عشر، لم تكن بأقل من الثروة التى تدفقت على أيبريا. من هنا يتضح لنا أصل الرأسمالية، بالمعنى «الحديث» للمصطلح، وأيضا، الأساس الذى كان للغرب أن يطور عليه تكنولوجيات معينة وينتجها على نطاق واسع وبكميات هائلة - بخاصة فى مجالات الأسلحة والنقل والاتصالات - التى مكنت حفنة من بلدان غرب أوربا من توسيع المناطق التى تهيمن عليها أثناء القرن التاسع عشر بدرجة أنه، وفى مطلع القرن العشرين، كان لهم ولذرياتهم ممن استوطنوا أمريكا الشمالية أن يزعموا حقوق ملكية معظم سطح الكرة الأرضية.

جوهرياً، عكس مسار التوسع الغربى بأكمله، والذى كان قد بدأ فى السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، علّة جوهرية نفسية غير سوية آخذة فى النضج والتى انبثقت عنها هوية «الغرب» بدرجة أن تم إسقاط مفهوم يجرد «الآخرين» من الآدمية، إسقاطه ليشملهم جميعا فى كل مكان، مفهوم مضى ينمو ويزداد زخما وخبثا وسُمية. لم يقتصر الأمر على ممارسة الالتهام الثقافي/ الفكرى للنوع الذى مارسه الغرب ضد الإسلام كما هو ثابت فى كل خطوة له على الطريق، لكن ذلك الالتهام تم توسيع

مداه فيزيقيا وممارسته ضد السكان الذين وُضِعوا مؤخرا فى مصنف «الآخر» بمدى واسع النطاق كاد يطغى على المذابح التى ارتكبت فى معرة النعمان والقدس فى الحملة الصليبية الأولي.

بحلول عام ١٨٣٠ كان قد تم نقل عشرين مليون إفريقى أسود من ساحل إفريقيا الغربى للاتجار بهم عبيدا، توفى منهم مليونان على الأقل أثناء شحنهم من إفريقيا إلى القارات الأمريكية. وعلى الرغم من ذلك، تُولِى الحملات التى يطلقها دعاة الإسلاموفوبيا من الليبراليين والمحافظين الجدد اهتماما أكبر كثيرا لتُجّار العبيد العرب فى الجنوب الإفريقي[1] من الاهتمام الذى يولونه لآلاف المسلمين الأفارقة الذين استُرِقوا وتم نقلهم مصفدين إلى القارات الأمريكية. لم يتوان تجار العبيد الغربيون عن إعمال القتل، بأسلوب مباشر وغير مباشر، أثناء الغارات التى كانوا يشنونها باستمرار لحصد السلع التجارية البشرية من وسط إفريقيا. وهنا، يجب إضافة الأعداد المهولة من الأفارقة الذين قتلوا فى موجات المذابح التى لازمت اجتياح الداخل الإفريقى فى السنوات النهائية للقرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.

يتضح هول الكارثة البشرية التى حاقت بإفريقيا وأعداد من فقدوا من سكانها من حقيقة أنه ما بين عامى ١٦٥٠ و١٩٠٠ ارتفع عدد سكان أوربا من ١٠٤ مليون نسمة ليصبح ٤٢٣ مليون نسمة فيما ارتفع عدد سكان إفريقيا من ١٠٠ مليون نسمة إلى ١٢٠ مليون فقط. أما فى القارات الأمريكية فكان التأثير أعظم كثيرا. قُدّر عدد سكان القارات الأمريكية ككل فى اليوم الذى رسا كولومبوس على شواطئها بمائة وخمسة وأربعين مليون نسمة، وفى غضون قرنين كان هذا العدد قد تقلص بنسبة حوالى ٩٥٪.

تميز صراع «الغرب» من أجل الحفاظ على وضع هيمنته الكوكبية من خلال

(١) كان هؤلاء العبيد يباعون للمساعدة فى الأعمال المنزلية فى غالبية الأحوال وكانوا يلقون معاملة أفضل، ويعتق الكثيرون منهم فى نهاية المطاف. لا يعنى هذا بأى حال تبرير تلك الممارسات من قبل التجار العرب. (الترجمة)

أسلوب الاستعمار «الكلاسيكي» طوال نصف القرن الذى بدأ من منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، تميز بالأسلوب الضارى فى القضاء على السكان «الآخرين» والتهامهم. ابتداء من الفترة ما بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٩ كان البريطانيون رواد استخدام أساليب القمع الوحشية ضد «الثورة الفلسطينية»، وهى ذات الأساليب التى استخدمها الفرنسيون طوال العقود التالية فى الهند الصينية والجزائر، واستخدمتها الولايات المتحدة فيما بعد فى ڤيتنام. فقد حوالى مليون هندى حياتهم فيما بين عامى ١٩٤٥ و١٩٤٨ من خلال محاولات بريطانيا التحكم فى مغبات تخلص الهند من الاستعمار. نجم عن محاولات الهولنديين إحباط استقلال إندونيسيا فيما بين عامى ١٩٤٦ و١٩٤٩ حوالى ١٠٠٠٠٠ قتيل. أدت محاولات بلچيكا لإعادة تثبيت هيمنتها على إقليم كاتانجا الغنى بالمعادن الثمينة بالكونغو التى كانت قد نالت استقلالها مؤخرا فى عام ١٩٦٠ إلى سقوط أعداد لا تحصى من القتلى تقدر بمليون أو أكثر. كانت تلك هى حشرجات الموت لما وصفه فرانتز فانون بأنه «الاستعمار المحتضر».

فى واقع الأمر، فقد لازمت المفارقة الرهيبة نجاح حركة العالم الثالث للتحرر من الاستعمار الذى كان قد أنجز بنهاية السبعينيات. وبدون التغاضى عن التضحيات الاستثنائية التى بذلتها الشعوب المُستعمرة أثناء نضالاتها من أجل التحرر، أو الأثر الموهن لتلك النضالات على قدرة المستعمرين للحفاظ على النظام الإمبريالى الذى كان قائما، فلابد من التأكيد على أن ما أنهك الإمبراطوريات وأخرج أحشاءها كان هو تطبيق أدولف هتلر للمبادئ الكلونيالية الخالصة على «القارة» [الأوربية] ذاتها أثناء الحرب العالمية الثانية. تركت الأوضاع التى فُرِضت هكذا – من النوع الذى كان «الآخرون» المستعمرون يعانونه بشكل روتينى لعدة قرون غالبا – تركت أوربا الغربية منهكة منسحقة بعد مجرد خمس سنوات بدرجة أنها لم يعد لديها القوة لإخضاع «الآخرين» بأسلوبها المعهود.

من ثم كان «عصر التحول» بعد الحرب، وهى فترة ميزها ليس فقط التحول المفترض من الواقع الكلونيالى إلى ما «بعد الكلونيالي» بل أيضا انتقال مركز «الغرب» ذاته

من العالم القديم إلى العالم الجديد. واكب هذا الانتقال الأخير إعادة ترتيب سريعة للآليات التى من خلالها يُبقى الغرب هيمنته على العالم خلال النصف الثانى من القرن العشرين، وكانت الولايات المتحدة هى من هندست عملية إعادة الترتيب تلك، بشكل رئيسي. استغل هذا النهج الجديد الحصيف، والذى سرعان ما أسماه كوامى نكروما وغيره من دعاة التحرير فى العالم الثالث، «الكلونيالية الجديدة neocolonialism»، استغل حالة البؤس والإملاق ذاتها والتى كانت تعانيها المستعمرات السابقة نتيجة استيلاء الغرب المستدام على ثرواتها ونهبه لها، استغلها وسيلة أساسية كى «تلزم [تلك البلدان] مكانها». تم إنشاء مؤسسات جديدة كاملة، كان الأبرز بينها البنك الدولى وصندوق النقد الدولي، اللذان أقيما من أجل إقراضها الأموال التى حُصدت نتيجة استغلال تلك البلدان، بذريعة تمكينها من التغلب على أوضاع «التخلف» الحادة التى تعانى منها.

ولكى تصبح «مؤهلة» لتلقى مثل تلك «القروض التنموية» طُلِب من حكومات العالم الثالث فى البداية أن تبرهن على «التزامها باقتصاد السوق الحر»، وهو أمر يتوقف بأسلوب ثابت على تفعيلها لسياسات داخلية تمنح الأفضلية للأرباح التى تجنيها الكوربوريشنات الغربية من المشاريع التى تنفذها داخل تلك البلدان، وترجحها على رفاه سكانها وسلامتهم. من ثم، ظلت الثروة التى يسلبها الغرب من العالم الثالث بنفس المعدلات التى كانت سائدة فى ظل الكلونيالية فى شكلها الكلاسيكي، بل وتفوقها فى بعض الحالات. عمل هذا ومعه نفقات خدمة القروض التى ترتفع باستمرار، على ترك كثير من المستعمرات السابقة أشد فقرا مما كانته قبل حصولها على الاستقلال.

تضمينات مثل تلك الترتيبات يستعصى على المبالغة. فى سبعينيات القرن العشرين، أوضحت التقديرات أن حوالى ٢,٢٥ مليار نسمة من الأمم «ذات البشرة السمراء»، يحاولون يائسين العيش على دخل سنوى للفرد يقل عن ٢٠٠ دولار سنويا، وأن حوالى ٨٠٠ مليون من هؤلاء يعيشون على أقل من ١٠٠ دولار سنويا.

بمنتصف الثمانينيات كان الوضع قد وصل لنقطة «الإبادة الجماعية الصامتة» حيث ذكرت تقارير منظمة الصحة العالمية أن ثمة ١١ مليون طفل فى العالم الثالث، فى المتوسط، يموتون سنويا نتيجة سوء التغذية و/أو عدم وجود أدوية لا تكلف الجرعة منها أكثر من عدة بنسات. فى عام ١٩٩٠، وفقا لبيانات البنك الدولي، بلغت الأرباح المتدفقة من «البلدان النامية» إلى الغرب مستويات قياسية، فيما ذكرت تقارير واكبت تلك البيانات أن نصيب البلدان الواحد وأربعين الأكثر فقرا من الثروة الكوكبية قد انخفض ليصبح ١٨٪ بعد أن كان ٢٣٪ فى العقد السابق. وفقا لصندوق النقد الدولي، فقد زاد تدهور الأوضاع فى تلك البلدان الواحد وأربعين بحلول عام ٢٠٠٩.

يكفى أن نقول إن ما وصفته منظمة التجارة العالمية على أنه إبادة جماعية «صامتة» لم تكن أبدا صامتة بالنسبة للسكان الذين كان أطفالهم – وكبارهم فى واقع الأمر – يموتون، ومازالوا يموتون بالملايين. كما أن أسباب ذلك لم تكن أبدا خفية عليهم (ليس من الصعوبة بالمطلق أن يتبينوا أن حياتهم وحياة أعزائهم قد فقدت قيمتها بدرجة أن أصبحت لا تستحق الحفاظ عليها بأكثر مما تستحقه أوراق التواليت). ونظير ذلك فقد سعت تلك الشعوب باستدامة، وبأسلوب أو آخر، إلى الإطاحة بأنظمتهم التى أقامتها الولايات المتحدة والتى ظل سبب وجودها ذاته، إلى جانب إثراء أنفسهم، هو ضمان «الحد الأقصى من الأرباح لاستثمارات» الكوربوريشنات الغربية على حساب شعوب كل منها مباشرة.

دفع هذا بدوره، ومنذ ستينيات القرن العشرين، الولايات المتحدة إلى الحفاظ على استقرار «بيئات البيزنس فى الخارج» بأن أمدت الأنظمة العميلة فى العالم الثالث بتدريبات عسكرية/ بوليسية، وبقوائم من الأسلحة تتزايد كميتها باستمرار، وبالذخائر، وبتكنولوجيا الاتصالات/ بيانات التخزين/ والرقابة، وغير ذلك من التجهيزات التى لا تستخدم سوى فى قمع رغبات الشعوب فى تغيير الأوضاع القائمة. ضاعف النظام الناجم عن «فاشية العالم الثالث» التى ترعاها الولايات المتحدة المعاناة التى ظلت

شعوب المستعمرات السابقة تخضع لها، بأن جعلت من التعذيب والعنف القاتل الذى يمارس على نطاق جماهيرى واسع أحيانا، شأنا روتينيا. أثناء ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين تم قتل ما لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠ شخص، أى حوالى ٨٥٪ من سكان جواتيمالا الأصليين من قبائل المايا على أيدى الجيش والشرطة الجواتيمالية فى مسعاهم لقمع المقاومة الشعبية، لسياسات استخدام الأراضى الحكومية. وهذا مثال واحد، ويوجد الكثير غيره.

وبنظرة ارتجاعية، فإن الأبعاد العنصرية والشوڤينية ثقافياً للنظام العالمى الجديد الذى بدأته الولايات المتحدة وقادته أثناء فترة ما بعد الحرب يبدو جلياً لدرجة الشفافية. فعلى حين لم يكن إصلاح مغبات الحرب فى العالم الثالث وتعويض بلدانه عنها جزءا من خطتها لهذا الجزء من العالم بعد رحيل الاستعمار الأوربى عنه، فإن الولايات المتحدة لم تبخل بالوقت أو الأموال كى تسهل عملية إعادة إعمار بلدان أوربا الغربية بما فيها ألمانيا واستردادها لقدراتها الصناعية بعد ما ألحقته الحرب بها. وهكذا فعلت أيضا بالنسبة للبنية الأساسية الإنتاجية لليابان، ذلك البلد الذى كان قد تغربن تماما بحلول ثلاثينيات القرن العشرين بدرجة أن هتلر دخل فى تحالفات معه. تم تصميم تلك الخطوات والإجراءات وقصد بها تحديدا توليد النتائج التى نجمت عنها – أى تمكين الغرب من أن يتغذى بكفاءة تفوق أى وقت مضى على لحوم الكتل البشرية الكوكبية لـ «الآخرين» الذين جُرِّدوا من آدميتهم بشكل كلى – تلك النتائج التى كانت واضحة منذ المستهل.

وفى واقع الأمر، فقد غدا الترتيب ثلاثى المحور للقوة الكوكبية التى أنشأتها الولايات المتحدة فيما بين عامى ١٩٤٥ و١٩٦٥ وسيطا مثاليا يمكن من خلاله تولّى أمر «التخطيط النخبوى لإدارة العالم»، وهو أمر انعكس جليًا فى تشكيل اللجنة الثلاثية فى عام ١٩٧٢، تلك اللجنة التى وصفت نفسها بأنها «نظير للقطاع الخاص لمجلس العلاقات الخارجية الحكومي»، زعمت أن مهمتها هى طرح توصيات سياسية

تؤدى إلى «تطور سلس وسلمى للنظام الكوكبي». وفيما يبدو هذا الهدف نبيلا، فقد تم الكشف عن معناه الحقيقى بأسلوب فاضح فى إحدى أوائل الدراسات التى أجرتها اللجنة ونُشِرت عام ١٩٧٥ حيث انتهت إلى أن «الديموقراطية المفرطة» ومعها «تدخل الحكومات القومية فى أسعار صرف العملات الدولية» تشكل العوائق الرئيسية لـ «التطور السلس» للنظام. أى أن الحد من هاتين المشكلتين معا – أو القضاء عليهما – سيجعل النظام أكثر «سلمية» فى نهاية المطاف.

إن غض النظر عن هذا بذريعة أنه لغو يمينى نمطى سيكون خطأ كبيرا. فإن بين أعضاء اللجنة ثلاثية الأطراف كثيرا من صناع السياسية النافذين فى العالم الرأسمالي، هذا علاوة على أنه قد تم تنفيذ التوصيات المضمرة فى تقرير اللجنة لعام ١٩٧٥. تم تقليص «تدخل» الحكومات فى التبادلات الدولية وأسعار العملات من خلال الاتفاقيات، مثل اتفاقية التجارة لدول شمال أمريكا NAFTA، كما أنه يجرى الآن التوصل إلى ترتيبات أشمل فى اجتماعات منظمة التجارة العالمية التى تفرض حولها الحراسة المشددة. أما بخصوص تقليص «الديموقراطية المفرطة»، فإن الكثير مما ذكرناه عن رعاية الولايات المتحدة للفاشية فى العالم الثالث يكفى للدلالة على هذا. وعلى الرغم من ذلك، فإننا ندعو من مازالت الشكوك تراودهم لمناقشة الموضوع مع أى شخص فلسطينى أو للاستماع إلى موميا أبوجمال التى كتبت تمهيدا لهذا الكتاب وهى من مواطنى الولايات المتحدة الملونين.

وبإيجاز، فإن الواقع الملموس هو أن القوة الساحقة تستخدم بتزايد ضد أى أحد، ويشمل هذا شعوبا بأكملها، يقوم بمقاومة ذات معني، لما يقصد به أن يكون الترسيخ النهائى للهيمنة الغربية. ولأسباب مباشرة، وأيضا جد معقدة بدرجة عدم استطاعتنا تفصيلها هنا، فإنه، وعلى مدى العشرين عاما الأخيرة، فإن أقوى التحديات لهذه الطموحات، ظلت تضطلع به الجماهير الإسلامية، وأحيانا أيضا بعض الحكومات الإسلامية. من ثم، فقد اكتملت الدائرة مرة أخري، حيث يقف الإسلام مرة أخرى

حائلا بين الغرب وبين تحقيق فنتازياته المرضية التى منها وُلِد إحساسه بذاته والتى قام هذا الحس على أساسها دائما. ومرة أخري، لابد من تقديم الأمثولات والعبر: وفاة أكثر من نصف مليون عراقى فى التسعينيات نتيجة للعقوبات التى فرضتها الولايات المتحدة، وذلك كى يستوعب قادة ذلك البلد خطورة مقولة جورج إيتش. دبليو بوش المأثورة «إن ما نقوله ينفّذ». ومرة أخرى يتم «تبرير» هذه البشاعات من خلال حملة متناغمة للتشهير بالضحايا وتشويه سمعتهم.

هذا إذن هو سياق ظاهرة الإسلاموفوبيا التى بُعثت من جديد والتى يُخضعها ستيفن شيهى للتحليل الدقيق الصارم فى الصفحات التالية. وبعمله هذا، فهو يقدم خدمة متسامية، ليس فقط للأسلوب الذى به يلقى الضوء على الظاهرة التى يصفها مباشرة، بل أيضا بما أن الإسلاموفوبيا تتضمن القالب الأصلى الذى منه اكتسبت تنويعات العنصرية الغربية التى تلت شكلها، ومن ثم، فهو يلقى الضوء أيضا على مدى أوسع وأكثر عمقا من الظواهر المرضية المختلفة. إنه فقط من خلال نزع الأغلفة عن فحوى عقلية السمو/ الأوروبى - أو عن عدم وجود فحوى لها - نستطيع أن نُحكم القبضة عليها ونستوعب مكوناتها وبهذا، فقد نستطيع أن نعثر على وسيلة لشفاء ذلك المرض الذى تُشكّل الإسلاموفوبيا أهم أعراضه، ومن ثم يمكن لـ «الفكرة الجيدة» التى قال بها غاندى أن تتحقق أخيراً، وإن لم نستطع هذا، فإن جدوى كتاب الإسلاموفوبيا ستكمن فى الآراء التحليلية المتبصرة وتساعدنا جميعا على فهم أفضل لما علينا مواجهته. وفى كلتا الحالتين، فإن قيمة هذا الكتاب لا تقدر، من ثم ندين لستيفن شيهى بأعمق درجات الشكر والإعجاب لشجاعته باضطلاعه بكتابته.

وارد تشرشل

مقدمة

«نحن الآن إمبراطورية» وحينما نتخذ الأفعال والإجراءات، فإننا نخلق الواقع الخاص بنا».

أحد كبار مساعدى بوش، لم يذكر اسمه

دخول أحاديث الكراهية إلى التيار الأمريكى السائد:

قال الرئيس جورج دبليو. بوش لقائد القيادة الوسطى الأمريكية الجديد الأميرال ويليام فالون والذى كان قد تجرأ لتوه قائلا إن الأمريكيين كانوا بحاجة لإيجاد سبيل للتعاطى مع الإيرانيين والدخول معهم فى حوار، قال له «إن هؤلاء الناس حمقى حقراء assholes». دَفعَ هذا التعليق، الذى انتشر بصخب على نطاق واسع، إلى العلن ما كان موضع شك من الكثيرين، أى أن البغض العميق الذى يُكنّه الرئيس للإيرانيين كان وراء استراتيجيته الإيرانية/ العراقية وهى استراتيجية لم «تقدم أى نهج» واقعى للتعاطى مع إيران أو مع المنطقة.

وبالتقابل، كان فالون يَلقى الثناء بصفته القائد الذى كان يتصدى لخطاب الحرب الذى تبناه البيت الأبيض والذى كان دافعه الرغبة فى الاستيلاء على النفط والغاز، حيث رفض فالون الخيار العسكرى ضد طهران. وفى حوار له، بعد ذلك، مع قناة الجزيرة، انتقد فالون علناً قرع طبول الحرب المستدام الصادر عن واشنطون، وأضاف قائلا إن ذلك «غير مفيد». كان عليه الاستقالة، فى النهاية، حينما أصبح اختلافه فى الرأى مع الإدارة علنياً بعد حوار له مع مجلة إسكواير. ونظرا لوصف الإعلام له بالبسالة لمعارضته الضغط من أجل الحرب وتثبيت تلك الصورة له، فقد تم تجاهل الكُنية التى كان قد أطلقها على الإيرانيين، حيث كان قد أسماهم فى حواره مع مجلة إسكواير «نملاً» سيتم «سحقهم فى الوقت المناسب».

فى أعقاب ٢٠٠١/٩/١١، تم نسف السقف الذى يمكن تقبله لحديث الكراهية ضد المسلمين، وضد العرب بخاصة. غدا بإمكان المحرضين متوسطى التطرف من

أمثال آن كولتر أن تُصرّح فى الوسائط المطبوعة ما كان لابد أن يمنعه أى رئيس تحرير مسئول أو أى حس بالكياسة، حيث كتبت قائلة بعد يومين من أحداث ٩/١١ «يجب أن نجتاح بلادهم ونقتل قادتهم ونحوّلهم إلى المسيحية. لقد قصفنا المدن الألمانية وسويناها بالأرض، وقتلنا المدنيين. كانت تلك حربا. وهذه هى حرب أيضاً» لم يتراجع عنف اللغة، بل تصاعد بما يتناسب مع التصاعد المأساوى فى عنف سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ومثلما أسمى بوش الإيرانيين «assholes»، وسمع رئيس قوات الولايات المتحدة بالخارج يسميهم «نملا» فقد قال الجنرال چيمس ماتيس بالمارينز، وقائد قيادة القوات المشتركة، بعد ذلك ببضع سنوات «اذهبوا إلى الداخل الأفغانى وستجدون رجالاً يصفعون النساء لعدم ارتدائهن الحجاب. تعرفون أن مثل هؤلاء ليسوا رجالا من ثم، فإنها لتسلية عظيمة أن تطلقوا النار عليهم». واكب تبرير قتل المسلمين بالخارج وما يرافقه من متعة، وابل من الأفكار عن الإسلام والمسلمين

لم يكن من المتخيل أن ينطق بها أحد من قبل، عبر عنها التيار السائد الأمريكى الأبيض. منذ ٩/١١، غدا المسلمون والإيرانيون والعرب والإسلام ذاته مواضيع للازدراء والسخرية العلنية على شاشات التليفزيون، وفى البث الإذاعي، والصحافة المطبوعة. نسمع، من الصباح وحتى المساء عن «الخصائص العظيمة الفاضلة لدين الإسلام الغائر فى القدم: قتل النساء على الشرف، ختان الإناث، منع النساء من قيادة السيارات، نعت اليهود بالقردة والخنازير».

وفيما يُشيطن الكثيرون اليمينيين من دعادة الكراهية بعد أن تم تطبيع وابل أحاديث الكراهية التى يقصفون بها المسلمين وأصبحت ضوضاء بيضاء معتادة تنعبث من البرامج الحوارية بالتليفزيون والإذاعة، تمضى الدوائر الليبرالية تستخدم الأضاليل القائمة على الإسلاموفوبيا، وتنميطاتها وتروّجها بزعم أنها نقيض وجهات نظرهم الخاصة. ولنا فى تعليقات هوارد دين الزعيم الديموقراطى الليبرالى على إقامة مسجد بالقرب من موقع هجمات ٩/١١ [Ground Zero] مثال على هذا الخطاب. قال وهو يتحدث إلى راديو WABC إن بناء مركز إسلامى على مقربة من موقع مركز التجارة العالمى سيكون إهانة حقيقية لمن فقدوا حياتهم فى ٢٠٠١/٩/١١، ثم مضى قائلاً، بذات الأسلوب الذى يستخدمه الديموقراطيون للتخفيف من عنصريتهم «أعتقد أن إقامة المساجد فى المدن الأمريكية أمر طيب، لأن أعداد المسلمين الأمريكيين تتزايد وأعتقد أن غالبيتهم معتدلون. آمل أن يستطيعوا التأثير على المسلمين فى أنحاء العالم، وذلك لأن الإسلام عاد إلى ما كانه فى القرن الثانى عشر فى بلاد مثل أفغانستان وإيران حيث يقومون برجم الناس حتى الموت، وهذا يمكن إصلاحه، ليس بالضغط على المسلمين وإقصائهم، بل باحتضانهم والعمل على أن يصبحوا مثل غيرهم من الأمريكيين، ومن الأمريكيين الذين تصادف أنهم مسلمون». ليس حديث هوارد دين بالمستغرب أو الجديد. فى الواقع، وكما سيوضح هذا الكتاب، فإن الكثيرين من مختلف المشارب الثقافية والسياسية فى أمريكا، يتشاركون فى الروايات المضلّلة الناجمة عن الإسلاموفوبيا. تقتضى رؤية هوارد دين استيعاب المسلمين [الأمريكيين]

وإدماجهم فى الثقافة الأمريكية بحيث لا يمثلون تهديدا لهيمنة الولايات المتحدة، أو لثقافة البيض القائمة على الاعتقاد فى سموهم، وتدعو للتأثير على جماعات المسلمين فى جميع أنحاء الكوكب من أجل ضمهم إلى الحظيرة الأمريكية.

وعلى حين أن الليبراليين والتقدميين ظلوا ينقدون الأصولية الدينية المسيحية ويزدرون خطابها، إلا أنهم يرون أن المسلمين يمثلون تهديدا وتحديا كما توضح تعليقات هوارد دين. لا يُعتبر هذا أمرا فريدا فى خطابات الليبراليين والتقدميين التى دائما ما تختص المسلمين [بالنقد والاتهامات]. مثلا، دائماً ما نجد فى كتابات ريتشارد دوكينز، العالم الملحد، أو كريستوفر هيتشنز. داعية الحرب الملحد أيضا هجوما على كل الأديان باعتبارها شعوذات لا عقلانية، لكنهما يُوجِّهان الاتهامات للإسلام بخاصة لما يزعمان عن نزوعه الاستثنائى لقمع الاختلاف أو الخروج على الإجماع من خلال أعمال العنف، وحظره المتأصل للمساءلة الذاتية. بل إن المثقفين والنشطاء التقدميين حينما ينقدون عسكرة الولايات المتحدة وإمبرياليتها، فهم دائماً يستدعون فى خطابهم هذا تصلب الإسلام والمسلمين وتخلفهم بصفتها أسبابا لعدم جدوى إشعال الحروب ضدهم. مثلا، يدعو چوهان جولتونج، مؤسس «دراسات السلام» والناشط المعادى للحروب منذ زمن طويل، إلى نقلة فى النموذج المعيارى لتفاعل الولايات المتحدة مع العالم – لكنه يستند إلى التنميطات فى دعوته إلى تقويض الإمبراطورية الأمريكية وإلى العدالة الاجتماعية الكوكبية. يعيد تحليله استنساخ تحليلات اليمينيين والنيوليبراليين حيث يذهب إلى أن لدى المسلمين مفهوما مختلفا عن الوقت والمجتمع والتاريخ والسياسة وكذلك علاقة مختلفة بكل تلك الأمور حيث إنهم يتمسكون بعقيدة الدفاع عن الإسلام «ضد الكفار»، كما يُحظَر عليهم الإذعان لحكم المسلمين واليهود لأوطانهم. من ثم، فليس ثمة جدوى للحرب على العالم الإسلامى لأن للمسلمين حساً مفتوحاً لا محدداً بالزمان مما يسمح لهم بالقتال ضد «الكفار» إلى ما لا نهاية. بتعبير آخر، فإن أفضل قرار تتخذه الولايات المتحدة هو إنهاء حروبها

مع المسلمين وذلك لأن داخل كل مسلم شخص أصولي سيحارب دون كلل أو ملل ضد هيمنة غير المسلمين على بلادهم.

تسود الإسلاموفوبيا جميع مستويات الحياة الأمريكية. من اليمين إلى اليسار، ومن المتدينين إلى الملحدين. يمكن القول إن بوش وداعميه أشخاص يسيطر عليهم هوس الإسلاموفوبيا ويعتقدون أن كل مسلم «حقير أحمق» وإرهابي.

ومن الناحية الأخرى نجد أن الديموقراطيين والليبراليين يعمدون بسهولة إلى نشر التنميطات التي تستدعي لا عقلانية العرب والمسلمين وعداءهم للحداثة من أجل تبرير دعمهم لهيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية.

وكما سنري، فإن مشاعر الإسلاموفوبيا جلية في قطاعات عديدة من المجتمع الأمريكي، تنفثها الوسائط الإعلامية ومراكز الأبحاث و«الخبراء» المتفقهون المزعومون، و«المخبرون المحليون»، والأكاديميون المارقون الأوغاد، واللوبيهات، وتنظيمات النشطاء. لا يشعر المسلمون فقط بالوابل اليومي لخطاب الكراهية، وأفعال الكراهية من خلال التحليلات والصور المهيمنة المزدرية، التي تجتاح شاشات التليفزيون والوسائط الإعلامية المطبوعة، وحتى لوحات الإعلانات في الطرق السريعة، بل إنهم أيضا يخضعون للرقابة الحكومية، وتقتفى آثارهم وتحركاتهم في الشوارع والمساجد والجامعات، وتُرصَد تجمعاتهم، وأموالهم وتبرعاتهم الخيرية. علاوة على ذلك، فإن حكومة الولايات المتحدة تتجسس عليهم، وتقمعهم وتقاضيهم. تجسد جميع مناقشات المجتمع المدني والإعلام عن الحرب، وعن العراق وأفغانستان الإسلاموفوبيا. تشكل الإسلاموفوبيا بنية جميع النقاشات حول الحرب على الإرهاب. تذيّل جميع النقاشات حول «إصلاح العلاقات مع العالم الإسلامي» نوازع هوس الإسلاموفوبيا. تغلب على جميع النقاشات حول فلسطين مفاهيم الإسلاموفوبيا، فيما غدت جميع النقاشات حول إيران وقدرتها النووية ودورها الإقليمي تعبيرا عن الإسلاموفوبيا. كما تشكل الكراهية الاستراتيجية المتعمدة للمسلمين والخوف منهم حدود جميع النقاشات حول الهيمنة على النفط والطاقة.

الإسلاموفوبيا والتشكيل الأيديولوجي للإمبراطورية الأمريكية:

وبعد أن قلنا كل هذا، ليست الإسلاموفوبيا أيديولوجيا سياسية فى حد ذاتها كما أنها ليست دوجما منعزلة بمثل ما أن الإسلام ذاته ليس أيديولوجيا سياسية أو دوجما منعزلة. لا تملك الإسلاموفوبيا برنامجا سياسيا أو حتى رؤية سياسية، إنها أمر جوهري، مجرد، مستدام، متأصل، وسائد. يذهب هذا الكتاب إلى أن الإسلاموفوبيا تشكيل أيديولوجي. لا يعنى هذا أنها الرؤية الجوهرية لأى حزب سياسي. الأحرى هو أن التشكيل الأيديولوجى تخلقه ثقافة تنشر مجازات، وتحليلات، وعقائد محددة بصفتها حقائق تؤطِّر بها السياسات الحكومية والممارسات الاجتماعية. يزعم هذا الكتاب أن الإسلاموفوبيا هى تشكيل أيديولوجى جديد تم التعبير عنه باكتمال منذ انهيار الاتحاد السوفييتي. لا ترجع أصول الإسلاموفوبيا إلى إدارة بعينها، أو أحد المفكرين، أو الفلاسفة، أو النشطاء، أو إلى أى منفذ إعلامي، أو مجموعة مصالح خاصة، أو مركز أبحاث، أو حتى قطاع اقتصادى أو صناعى هذا على الرغم من أن كل هؤلاء مسئولون بأسلوب جمعى عن نشر التنميطات الخبيثة المعادية للمسلمين والمعادية للعرب وعن تداول تلك المعتقدات من أجل تطبيع هيمنة الولايات المتحدة الاقتصادية والسياسية على الكوكب وتبريرها. منذ اليوم الأول لتوليه الرئاسة، أظهر بوش وإدارته بوقاحة الاحتقار للعرب والمسلمين، وبلا أدنى مواراة. ستوضح الفصول التالية أن إدارتى كلينتون وأوباما تسودهما نماذج الإسلاموفوبيا والإجراءات المؤسِّسة عليها والتى تقترن بنظرة إمبريالية أمريكية مماثلة. وفى واقع الأمر، فإننا، منذ ٩/١١ نشهد الإسلاموفوبيا وقد أصبحت تيارا سائدا بأسلوب غير مسبوق. مثلا، كتب روبرت سبنسر، وهو شخص متطرف غريب الأطوار، مقالين طويلين عنصريين خبيثين عن الإسلام أصبحا ضمن قائمة النيويورك تايمز لأعلى المبيعات، فيما حظى كتاب «العدو الداخلي» المبتذل والمثير للفتن والذى ألفه بروس باور، بترشيح دائرة نقاد الكتب القومية ذات المكانة المرموقة كأفضل كتاب نقد.

وفيما عمل الأكاديميون والنشطاء والمجموعات المحلية، وأيضا الهيئات من أمثال

هيئة «الإنصاف والدقة فى التقارير» على ضم المدعين المأجورين والمثقفين الزائفين إلى التيار السائد، يتبنى هذا الكتاب مسلكا مختلفا. فبدلا من فهم الإسلاموفوبيا بصفتها سلسلة من الأفعال والمعتقدات التى تستهدف المسلمين وتنتج عن سوء فهم نوعى للمسلمين والإسلام، فإنه يكشف أن الإسلاموفوبيا هى ظاهرة أيديولوجية توجد لتعزيز غايات سياسية واقتصادية على مستوى الداخل والخارج. يمكن لنتائج تلك الأيديولوجيا أن تكون سلسلة من الأفعال والإجراءات تضفى حكومة الولايات المتحدة عليها صفةً مؤسسية وتتراوح بين شن الحروب والتعذيب المبرمج، إلى أعمال الخطف والاحتجاز والإعدام دونما إذن قضائي، إلى المراقبة ونصب الفخاخ والإيقاع بالأشخاص. يخبر المسلمون فى حياتهم اليومية آثار الإسلاموفوبيا، حيث يواجهون المضايقات والتحرشات، والتمييز العنصري، وحديث الكراهية فى الشارع، والجعجعات المتبجحة المعادية للإسلام على شاشات التليفزيونات القومية فى برامج البث الإذاعي، وأفعال الكراهية مثل تفجيرات المساجد. بيد أن تلك الآثار قد تُفهم على أنها مجرد أفعال متفرقة تتماس أحيانا إذا لم يتم النظر إليها على أنها تقع داخل نموذج أصلى كامل للإسلاموفوبيا أو خطابها الذى يتخلل الثقافة الأمريكية والمجتمع الأمريكي.

ومن أجل أن تمارس تلك الآثار فى تناغم مع خطاب يبررها، لابد للإسلاموفوبيا أن تعمل على مستويين فى آن؛ مستوى الأفكار والأحاديث والإدراك؛ ثم المستوى المادى للسياسات والعنف والأفعال. من ثم، فإن بنية هذا الكتاب ذات نهج علمى مزدوج يُنقّب عن كيفية عمل الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجى مُؤثر يقوم بتيسير أهداف الإمبراطورية الأمريكية. من ناحية، يقيم هذا الكتاب تحليلاته على كتابات أشخاص مثل برنارد لويس وفريد زكريا، وأعمال «المخبرين المحليين» من أمثال إيان هيرسى على وإرشاد منجي، وعلى خطابات لبوش وأوباما ووزرائهما وتابعيهما ومرءوسيهما من الذين توفر تحليلاتهم وفلسفاتهم السياسية الأساس الاستطرادى الراسخ لتطبيع الإسلاموفوبيا وتبريرها كسياسة دولة خارجية، وسياسة نفطية وأمنية واقتصادية، داخلياً وخارجياً.

من أجل تبسيط الصرح الأيديولوجى متعدد الأوجه للإسلاموفوبيا سنقدم توضيحا تفصيلياً لنموذجين من الإسلاموفوبيا متماثلين ومتنافسين فى آن، هما النموذج الذى تطرحه كتابات برنارد لويس وذلك الذى تروجه كتابات فريد زكريا. ومما يستحق التكرار فإن هذين الاثنين ليسا من ابتدع روايات الإسلاموفوبيا التى انتشرت بعد ٩/١١، لكن يمكن القول إن أعمالهما تعتبر تركيزا لروايات الإسلاموفوبيا التى كانت قد ظلت قيد التداول والتراكم طوال العقود السابقة. قام لويس وزكريا بعملية تقطير لكثير من معتقدات الإسلاموفوبيا وتكثيفها فى خطابين منفصلين ومتقاطعين فى آن يهدفان بوضوح إلى شرعنة نشر قوة الولايات المتحدة السياسية فى منطقة الشرق الأوسط، وإلى التحكم فى سكانها المحليين. يتم تكرار النقاط الداعمة فى هاتين النسختين من الإسلاموفوبيا فى جميع وسائط الإعلام السائد، والدوائر السياسية، ومن خلال المخبرين المحليين (أشخاص من أصول مسلمة أو عربية يُزعَم أنهم أفضل من يُعرِّفون المشاهد الداخلية للثقافة العربية/ الإسلامية وينقدونها) وتتردد أصداؤها فى خطابات بوش وأوباما.

ومن جهة أخري، سيوضح هذا الكتاب أن خطابات الإسلاموفوبيا هذا لها نتائج واقعية ملموسة. بتعبير أخر، فإن مفردات الإسلاموفوبيا هى الهراوات والحجارة التى بها تكسِّر عظام المسلمين، من خلال هندسة الخوف الأورو/ أمريكى من المسلمين وكراهيتهم وإدارته وتوجيهه والعمل كوسائط له، داخل الولايات المتحدة وفى أنحاء الكوكب، كما يمكن تبرير السياسات الداخلية الجديدة التى كانت تعتبر سابقا لا دستورية، بل حتى لا أمريكية، بصفتها أمورا ضرورية للأمن والحفاظ على الذات. كان التعذيب، بدءا من الإغراق بالماء والعزلة المفرطة للمتهمين الأمريكيين بالولايات المتحدة إلى الوسم العنصري، والخطف، وعمليات التسليم الاستثنائى لبلاد تقوم بتعذيبهم، والاغتيالات بدون إذن قضائي، وتجميد إجراءات الاستدعاء القضائية، والحرب الشامل ضد بلدان ذات سيادة واحتلالها من نتائج نشر مزاعم الإسلاموفوبيا وتنميطاتها، ونماذجها وتحليلاتها.

سيبحث هذا الكتاب النتائج العنيفة للإسلاموفوبيا، التى تكاد ألا تخفي ويوضح

بخاصة تعدّد شعاب الهجمات علي المسلمين والعرب في الولايات المتحدة. تعمل المنظمات والوكالات الحكومية مع المجالس التشريعية، والهيئات التنفيذية، بل وحتي القضائية علي استهداف الأمريكيين المسلمين والعرب. وتحديد ملامحهم، وتجميع ملفات عنهم وتجريدهم من حقوقهم الدستورية. تعمل جماعات المصالح السياسية. واللوبيهات ولجان الفعل السياسي مع السلطات المحلية وسلطات الولايات المتحدة والسلطات الفدرالية من أجل عزل الجاليات المسلمة والمنظمات الطلابية والنشطاء والأكاديميين المسلمين وإثارة الذعر بينهم ومضايقتهم والتحرش بهم. وبالمثل، يبث الإعلام بكفاءة دعايات صريحة معادية تعمل علي شيطنة العرب والمسلمين وتزيد من حجم عداء التيار السائد للإسلام ومعتنقيه. سنري كيف تُرتكب أفعال متطرفة ضد العرب والمسلمين وضد أقليات أخري يعتقد خطأ أنها منهم، علي خلفية وابل ضوضاء كراهية الإسلام هذه التي يطلقها البيض.

وفي الواقع، فإن هذا الكتاب ليس شاملا ذلك، لأنه من سوء الحظ فإن قائمة الأفعال والخطابات والأحاديث والأحداث والنشطاء والمشرعين المعادين للعرب والذين يبثون كراهية الإسلام والخوف منه أكثر من أن نستعرضها هنا.

يحتاج سرد أفعال الإسلاموفوبيا وإجراءاتها، تلك التي ترتكبها الحكومة، والمواطنون العاديون، والمنظمات العامة، وهوليوود، والوسائط الإعلامية إلي مجلّدٍ ضخم من عدة أجزاء لابد له وأن يبدو أنه كتالوج لتجليات الكراهية والبغضاء. وفيما أن العمل الجاد علي استقصاء كراهية العرب والإسلاموفوبيا أمر مهم، فإن هذا الكتاب يأمل أن يكشف تعقيدات التشكيل الأيديولوجي ذاته، من أجل فهم بنيته وتنظيمه، والملاحظة الناقدة لتجلياته في المجتمع الأمريكي. ولهذا السبب، نقوم بتعريف الإسلاموفوبيا وفحصها من منطلق نماذج أصلية استطرادية أخذناها علي شكل روايتين رئيسيتين، هاتين اللتين أمدنا بهما برنارد لويس وفريد زكريا. وبدلا من مناقشة جميع الأوغاد، والأكاديميين الزائفين، والسياسيين المأجورين، والمخبرين المحليين الدجالين، والناقدين الانتهازيين، والصحفيين النشطاء، مناقشتهم كل علي

حدة، فإن أعمال حفنة من دعاة الإسلاموفوبيا ومروجيها تساعد علي تحديد السقالات التي عليها تتسلق سياسات الإسلاموفوبيا وإجراءاتها، وتجد السياسات الأمريكية الخارجية والداخلية تبريراتها.

كلينتون / بوش / أوباما: استمرارية الإسلاموفوبيا

كُتِب الكثير عن كيفية استخدام بوش لأحداث ٩/١١ من أجل تغيير طبيعة الحريات المدنية، والرئاسية، والسياسية في الولايات المتحدة. يسرت حرب بوش علي الإرهاب، وما تلاها من حرب أوباما علي القاعدة أعمال قمع أنصار البيئة، والنشطاء من مناهضي الحروب، والأناركيين وغيرهم من الخارجين علي الإجماع، كما عملت أيضا علي استمرار تردي الحريات المدنية. بيد أن هذا الكتاب يجزم بأن الإسلاموفوبيا سبقت ٩/١١، وأيضا استمرت بعد إدارة بوش. توالت الاستمرارية من رئيس لآخر منذ جورج إيتش. دبليو بوش. استمر ظهور المسئولين ممن خططوا للإسلاموفوبيا، وعملوا علي أن تصبح تيارا سائدا، وأضفوا عليها الصبغة المؤسسية ورسخوها في عقول الأمريكيين، بل وفي النظام القانوني ذاته، استمر ظهورهم وعودتهم إلي الظهور في مناصب وأماكن مختلفة طوال العقود التي تلت سقوط الاتحاد السوفييتي. ثمة استمرارية قوية من إدارة بوش إلي إدارة أوباما، كما أن تسرب السياسات التي استحدثت ضد العرب والمسلمين واستخدامها ضد قطاعات اجتماعية أخري، مازال قائما مثلما يوضح عمل كريس كوباتش عن التحري عن السكان. كان كوباتش قد عمل مُدّعيا في إدارة بوش وساعد جون أشكروفت المدعي العام [وزير العدل] علي استحداث «تسجيل الدخول/ الخروج الخاص بالأمن القومي» وهو برنامج للتقصي، يتطلب أن تؤخذ بصمات جميع المواطنين من البلدان العربية في الغالب، ورصد تحركاتهم أثناء إقامتهم بالولايات المتحدة. كان أول ظهور لهجمة كوباتش علي الحريات المدنية للمواطنين من غير الأمريكيين أثناء تولي أشكروفت منصب وزير العدل. ثم عاودت تلك الهجمة الظهور في مذابح الحريات المدنية الأخيرة ضد اللاتينيين، حيث ساعد كوباتش علي صياغة قانون في ولاية تكساس يسمح لهيئات فرض القوانين بتوقيف أي شخص يشتبه في أنه غير مسجل بالوثائق الرسمية أو لا يحمل وثائق.

مازالت أعمال الكراهية الخاصة، وسياسات تكوين الملفات عن الأشخاص وتحديد ملامحهم، والرقابة والإيقاع بالمسلمين الأمريكيين والمهاجرين وتقديمهم للمحاكمة من خلال استخدام مستفزين عملاء، وتوجيه اتهامات غامضة فضفاضة زائفة مثل «دعم الإرهاب ماديا»، مازالت مستمرة علي الرغم من تغير الرئيس. تستمر مقاضاة المسلمين الذين تم اختطافهم بوسائل غير مشروعة وتوقيفهم بواسطة جيش الولايات المتحدة، من بينهم متهم في الخامسة عشرة من العمر كانت المعايير تقتضي أن يخضع لمعاملة إصلاحية بوصفه أحد الجنود الأطفال، فيما تصاعد تسليم المشتبه بهم إلي جهات خارجية تقوم بتعذيبهم، وكذلك تنفيذ الاغتيالات المتعارضة مع الإجراءات القضائية. وبدلا من مقاضاة ديك تشيني، ودونالد رمسفلد وألبرتو جونزالز كمجرمي حرب نظرا لانتهاكهم الواضح للاتفاقيات الدولية الراسخة ضد التعذيب، وحول معاملة أسري الحرب، فقد جاهد إريك هولدر المدعي العام بإدارة أوباما من أجل استمرار قمع حريات المسلمين المدنية بالولايات المتحدة. تحدي مكتبه شكاوي أشخاص مثل ماهر عرار وخالد المصري، ومظالمهما، حيث كانت الولايات المتحدة قد قامت باختطافهما ثم أُخضِعا للتعذيب في سوريا والولايات المتحدة علي التوالي. وما هذه إلا القليل من إجراءات مماثلة كثيرة توضح لنا بقوة أن الإسلاموفوبيا ليست ظاهرة عرضية، بل علي النقيض، فإنها حملة مستدامة تعود أصولها إلي صعود العالم أحادي القطب.

وهكذا، فإن القضايا التي يتعاطي معها هذا الكتاب تمتد خارج نطاق الأيام العنيفة المتهورة لنظام بوش الذي انتهك بصفاقة حقوق المسلمين والعرب، واستهدف النشطاء والأكاديميين والجاليات العربية والمسلمة. واستخدم العسكرة أداة رئيسية في سياسته الخارجية القائمة علي أساس الإسلاموفوبيا، فيما نقوم بتضمين أمثلة حديثة كثيرة من خطابات الإسلاموفوبيا، وأعمال الكراهية والبغضاء من أجل إثبات ما نعرض له. وفي واقع الأمر، فإننا لم نورد أعمال عنف كثيرة مثيرة للقلق، بل وصارخة، ارتكبت ضد المسلمين والعرب في الولايات المتحدة أثناء فترة رئاسة بوش الأولي وذلك من أجل تضمين أحداث وخطابات وسياسات ومحاكمات حدثت منذ عهد

قريب. علاوة علي ذلك فإن هذا الكتاب يورد مصادر كثيرة متاحة من التيار السائد يمكن للقارئ العام غير المتخصص الوصول إليها بسهولة. أي أن النهج الذي يتبعه هذا الكتاب يتوخي الصرامة الأكاديمية ويذكر الهوامش بدقة، كما يجتزئ جميع الأحداث والمصادر والنصوص التي يحيل إليها. وعلي الرغم من ذلك، وكأساس لهذا المنهج الأكاديمي، فقد استندت عامدا إلي المقالات والوثائق والكتب التي يمكن لغير المتخصصين الحصول عليها بسهولة، وهذا الاستناد بأسلوب شبه حصري إلي إصدارات التيار السائد يتضمن الأنجلوفونية ومنافذ إعلام هذا التيار. بتعبير آخر، لم أستند إلي قائمة المهارات المتخصصة التي تميز بين طرق الباحثين الأكاديميين وبين مناهج بحث صناع السياسة والصحفيين الآخرين من غير المبتذلين والذين ينتمون إلي التيار السائد.

يمثل تعقيد الإسلاموفوبيا تحدياً حيث إن التطورات الخطيرة التي حدثت في السنوات الأخيرة جعلت من الصعب إكمال هذا الكتاب بسبب توفر مادة غزيرة إلي حد الإفراط. أنَّي للمرء أن يتوقف عن ملاحظة التطورات المهمة الدالة وتحليلها في وقت تتكشف فيه تطورات جديدة يومياً؟ يساعد النهج المزدوج المستخدم في هذا الكتاب علي إطالة أمد الاستبصارات التي نأتي بها وأهميتها إلي زمن تكون فيه تلك الأحداث والمحاكمات، بل وحتي النقاد والمنظرون الذين استشهدنا بهم قد دخلوا في ذمة التاريخ منذ وقت طويل. وفي النهاية، فإن الإسلاموفوبيا تركيبة سياسية وثقافية، ولذا ، فليس في نية هذا الكتاب الدفاع عن الإسلام حيث إن الإسلام لا يحتاج إلي دفاع. إنه دين معقد وبسيط، راقٍ وحصيف، مركب وحَمّال للأوجه تماما مثل المسيحية واليهودية والبودية والهندوسية. إنه متنوع متباين يضم طوائف ومدارس ومجموعات أرثوذكسية [تقليدية] وأخري مجددة مبتدعة. ليس هذا كتابا يدافع عن الإسلام كدين أو عن المسلمين حيث إنني أذهب إلي أن فكرة أن الإسلام بحاجة إلي دفاع هي نوع من الإسلاموفوبيا، حيث إنها تمحو تماما تعقيدات الدين وتختزل تنويعاته الثقافية والإقليمية وتأويلاته العقائدية إلي دين أصم أوحد، ويختزل المؤمنين به في شخصية مفردة تسمي «المسلم».

الإسلاموفوبيا وشطحاتها: أوربا والولايات المتحدة:

صادمة هي حقيقة أننا مازلنا نناقش «ما الإسلام؟»، و«من المسلمون»؟ و«لماذا يكرهوننا؟» إلخ.. وبخاصة أن أبحاث ودراسات المستشرقين البارزين من أمثال چاك بيرك، ومكسيم رودينسون، وألبرت حوراني قوضت فكرة أن الإسلام دين واحد أصم لا يتضمن أية تنويعات بين الشعوب والأزمنة والجغرافيات. بيد أنه فقد صدرت أعداد مفرطة من الدراسات التي تبرر استمرار ما يمكن اعتباره تفتيشا [قضائيا] في هوية المسلمين وعقيدتهم وضمائرهم، وليس تفحصا لها وبحثا فيها. تدل هذه الظاهرة علي أن الإسلام [في نظر هؤلاء] لم يعد في عصر العولمة هذا، ممارسة دينية فقط، بل إنه اكتسب وضعاً أكبر كثيرا - وبخاصة في ضوء حقيقة أن القوي الإسلامية تبدو وأنها هي التي تقاوم، بشكل أساسي، غزو القوات الأمريكية، أو تلك التي تنوب عنها، لأوطان المسلمين. وكنتيجة لذلك، فمن الممكن القول إن الإسلام لعب دوراً في العقود الأخيرة في إعادة تشكيل «سياسات الهوية» للمسلمين. بيد أن الإسلام كمحدِد للهوية يعني أشياء مختلفة لمختلف الناس في مختلف الأماكن. وعلي الرغم من ذلك، لن يتفحص هذا الكتاب المسائل المتعلقة بهوية المسلمين الأمريكيين التي تغري بطرح أسئلة مثل ما إن كان من المستحسن أن ترتدي المسلمات الأمريكيات الحجاب أم لا ترتدينه. أو لم تختلف أسبابهن لارتدائه عن الأسباب التي أدت إلي ارتداء النساء المصريات له كتحد للدولة «السلطوية» العلمانية. أو الأسباب التي تجعل الجاليات المسلمة في الولايات المتحدة تندمج في المجتمع، وتحقق أعلي متوسط للدخل ومستوي التعليم بين الأقليات الإثنية هناك، علي حين تنزع الجاليات الإسلامية في أوربا لأن تظل أكثر انعزالا.

ومع معرفة أن الإسلام آخذ في الانتشار كمحدد اجتماعي / ثقافي سياسي للهوية فلابد وأن يتجنب هذا الكتاب أيضا مناقشة الفروق بين الإسلاموفوبيا الأوربية ونظيرتها شمال الأمريكية. ليست الإسلاموفوبيا حالة شمولية أو مفهوما أيديولوجيا أوحد أصم. أزعم أن الإسلاموفوبيا الأوربية ونظيرتها الأمريكية ظاهرتان

اجتماعيتان/ سياسيتان منفصلتان، وأذهب أيضا إلي أن الإسلاموفوبيا العربية/ المسيحية اليمينية، سواء تلك التي يعبر عنها الموارنة أو المسيحيون الأرثوذكس، أو الكلدانيون أو الأقباط هي أيضا ظاهرة منفصلة تنبثق عن أوضاعهم الخاصة التاريخية والاجتماعية. ومثلما يكتسب الإسلام معانى داخل إطار مفهوم سياسات الهوية التي يشكل جوهرها الأوضاع السياسية المحلية والسياقات الاجتماعية، فإن الإسلاموفوبيا يجري بثها بهدف أيديولوجي محدد ومن أجل إحداث آثار تعتمد علي أوضاع اجتماعية وسياسية وتاريخية واقتصادية محددة ومتنوعة. يختلف موروث الإسلاموفوبيا شمال الأمريكي عن نظيره الأوربي.

تأتي البرامج الوثائقية الأوربية التي بُثت مؤخرا، مثل وثائقيات البى بى سى بعنوان «جيل الجهاد» مشبعة بالقلق الناجم عن ماضي بريطانيا الاستعماري حيث يُنظر إلي المهاجرين المسلمين في بريطانيا بصفتهم جالية منعزلة منبوذة، تجعلهم فلسفتهم المعارضة للاندماج عرضة لأخطار التطرف الإسلامي، لمخاوف أوربا من المسلمين جذورها في مواقفها الأبوية تجاه الشعوب اللاغربية في وقت لم تعد السلطة الأبوية المطلقة موجودة. ظلت المراكز الكلونيالية تشعر بعدم الارتياح دائما من التفاعل مع ذوي البشرة السمراء كأنداد متساوين، وبخاصة هؤلاء الذين كان الأوربيون قد قدموا أنفسهم لهم على أنهم مفوّضون من أجل جعلهم شعوبا متحضرة. يعود توتر الأوربيين من ذوي البشرة السمراء إلي تاريخهم الكلونيالي وإلي هزائمهم في عصور ما بعد الكلونيالية علي أيدي حركات التحرر القومية التي سرعان ما تبعها استعادة السطوة الأوربية الاقتصادية من خلال الكلونيالية الجديدة. بيد أن للإسلاموفوبيا الأوربية أصولها أيضا في قلقلها من «الآخرين» الأوربيين أي اليهود الأوربيين، وبغضها لهم من ثم، فإنه في زمن ما بعد الهلوكوست وما بعد إسرائيل، أسقطت أوروبا نزوعها إلي معاداة السامية وبغضها لليهود علي المهاجرين المسلمين الجدد. بيد أنه أيضا، فإن إسقاط معاداة السامية علي الجاليات المسلمة في أوربا هو تحويل لمشاعر الخسارة والاستياء والغضب الناجمة عن فقدان قوي أوربا الإمبريالية السابقة إمبراطورياتها

الكوكبية في الوقت الذي عليها فيه تحمل العبء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ومسئولية ماضيها الكلونيالي. نتيجة لهذا، غدا صعود الإسلاموفوبيا في أوربا يعبر عن نفسه من منطلقات الخوف من «أسلمة» أوربا مثلا، أو تردي العلمانية الراسخة، أو إفلاس دولة الرفاه الاجتماعي، أو «القنبلة الديموجرافية» الموقوتة، لكننا لن نبحث في هذا الكتاب سوي الإسلاموفوبيا الأمريكية فقط.

الاستشراق مقابل الإسلاموفوبيا: تنويعات تاريخية:

لا يجزم هذا الكتاب بأن الغرب ظل عدوا أبديا للإسلام. كما أنه لا يقدم الإسلام علي أنه الدين القويم الوحيد الذي ليس له تاريخ مارس فيه المسلمون العنف، أو ماضٍ إمبريالي. كما أنه لا يقدم جميع المسلمين بصفتهم ضحايا أو يدافع عن أعمال العنف السياسي حينما لا يجوز الدفاع عنها. كما أنه أيضا لا يقطع بأن الأمريكيين جميعهم يكنّون بغضا متأصلا للمسلمين حيث إنه في واقع الأمر، فقد أوضح الباحثون بأسلوب مُقنع وجود علاقة تاريخية حميمة بين الغرب والعالم الإسلامي، وبخاصة العرب المسلمون والسلافيون والبربر والأتراك، بل إن بعض من قاموا بمراجعة تاريخ الحروب الصليبية يذهبون إلي أن العلاقات بين المسلمين والأمراء الصليبيين والإمارات الأوروبية كانت أحيانا أكثر حميمية من العلاقة بين هؤلاء الأمراء، ومنافسيهم المسيحيين. يتيح لنا فهمنا للإسلاموفوبيا بصفتها تشكيلاً أيديولوجياً داخل سياق الإمبراطورية الأمريكية، استلابها من أيدي «الثقافة» أو من الأسطورة التي تقول بوجود سلف واحد لها سواء كان هذا شخصاً أم تنظيما أم جماعة. من ثم، فإن هذا الكتاب يحيد مبتعدا عن الاعتقاد المتفق عليه في أوساط التقدميين والقائل بأن الإسلاموفوبيا قد ظلت موجودة بشكلها الحالي في الولايات المتحدة منذ عقود. فالأمر ليس كذلك ولابد من التمييز بين الإسلاموفوبيا كتشكيل أيديولوجي وبين أشكال العنصرية والتحيز في الماضي، بما في هذا الاستشراق، وهذا لا يعد تبرئة للاستشراق وأشكال كراهية العرب السابقة من ماضيها الخبيث. الأحري أن هذا الكتاب ينوي تأريخ الإسلاموفوبيا في سياقها السياسي الصحيح وذلك من أجل إبراز مدي تجلياتها العنيفة.

في الواقع، فقد ظل الاستشراق موجودا منذ بزوغ فجر عصر الكلونيالية. يكشف كتاب إدوارد سعيد، والذي يعتبر معلما في هذا المجال، كيف تم تشكيل مفهوم «المشرق» والموضوع «الشرقي» من خلال الأعمال البحثية الأكاديمية في العواصم الكلونيالية، حيث قامت تلك الأعمال بوضع الأساس «المنطقي» لتبرير الاستعمار، ولمهمة نقل المدنية إلي تلك الشعوب، وللسياسات الكلونيالية، ولإعادة تنظيم العالم العربي وترتيب أموره. يوضح سعيد لنا أن الاستشراق ليس ظاهرة واحدة موحدة لازمانية. بل إنها تشكل أيديولوجي. وبصفته هذه فقد تعرض الاستشراق لتحويلات وتعديلات، كما أن له تنويعات. وعلي الرغم من أن الاستشراق لا ينضوي علي كراهية العرب إلا أن كثيرا من المستشرقين يزدرونهم. لكن أيضا، ومما يسبب الأسي للصهاينة والإمبرياليين اللاحقين، فإن كثيرا من المستشرقيين كانوا محبين للعرب. اخترق الاستشراق تفكير الغرب وسيطر عليه إذ إنه شكل بنية الأسلوب الذي نفكر به «نحن» عن الشرق ابتدع «الاستشراق» «المشرق»، والعالم الإسلامي والشرق الأوسط، والشرق بأكمله كموضوعات للدراسة، وموضوعات للتحكم وموضوعات للإصلاح والفانتازيا والسِحْر والازدراء.. ابتدع «الشرق» من أجل تمييز «الغرب» عن «الآخرين الساميين» المجاورين له.

بيد أن الاستشراق ليس مرادفا للإسلاموفوبيا، بل إنه مهد الطريق لها؛ حيث يمكن القول إن الإسلاموفوبيا هي وريثة الاستشراق الذي نجح سعيد وآخرون في إبطال مزاعمه وإثبات زيف أمثلته ونماذجه. أستطيع القول إن الاستشراق، بالمعني الذي استدعاه سعيد، استُخدِم أحيانا لشطينة العرب كإثنية أو عرق. كان الإسلام مجرد سمة ثقافية تمَّ أخذها في الاعتبار ودراستها في سياق أوسع لدراسة المشرق العربي وتحديده، إذ إن النماذج المعيارية التي أوردها الاستشراق ذات توجه إثني وعرقي. ومن هذا المنطلق، يتم النظر للعرب والفرس والأتراك كمجموعات متمايزة. وفقا للاستشراقيين المؤسسين البارزين من أمثال إرنست رينان، فإن كون هؤلاء جميعا من المسلمين لا يعدو أن يكون من شطحات التاريخ، وفي هذا، فالاستشراق يختلف عن الإسلاموفوبيا.

إن شيطنة المسلمين والعرب عملية تهدف إلي صرف الانتباه وتحويله بقدر ما هي عملية تبريرية، حيث إنها تحول دون استيعاب الأمريكيين للحقائق المؤسفة للإمبراطورية الأمريكية أو علي الأقل تحول دون تعرفهم علي آدمية ضحايا الإمبراطورية. بيد أنه، في ظل الوجود المستدام لظواهر الإسلاموفوبيا وكراهية العرب، يمضي المثقفون، والنقاد، ورجال الدين، والأكاديميون في الغرب والعالم الإسلامي يتصدون لها ناقدين، رافضين مزاعمها التبسيطية، وتعميماتها الفجة، والتجانس المطلق الذي تضفيه علي ثقافة المسلمين وهويتهم. برزت تنميطات الوسائط الإعلامية والمنتجات الترفيهية في مقدمة التفحصات الناقدة لهؤلاء. ولا غرو في هذا إذا نحن أخذنا في الاعتبار أن اللوحات التي رسمها الفنانون الاستشراقيون في القرن التاسع عشر قد واكبت الاستعمار والإمبريالية الأوربية، وقدمت للمشاهد الغربي رؤية مُشيّئة لـ «الآخر»، أي أنها جعلت منه «شيئاً» يمكن تشكيل مفهوم عنه بمقارنته بالذات الغربية الأسمي، شيئاً غرائبيا، تهديدا، موضوعا رومانسيا، وشيئاً يَسْتدعي إخضاعه. أما في القرن العشرين، ومنذ الأفلام السينمائية الأولي، فقد ظلت جماهير المشاهدين الغربيين تتلقي الصور الاستشراقية للعرب والمسلمين وتستوعبها في وعيها ولا وعيها.

توضح لنا هوليوود كيف أن الخوف من المسلمين وكراهيتهم لا يعدوان في واقع الأمر أن يكونا تنويعة أخري علي ظاهرة كراهية العرب العنصرية. منذ بزوغ فجر السينما، ظل يُضفي علي العرب سمات غرائبية، فهم البدو المفعمون بالحيوية، أو البرابرة الذين يتسمون بالفحولة ويمتطون الإبل، أو الهمجيون الأجلاف النبلاء. ثم تغيرت فيما بعد تمثيلات العرب ليصبحوا يساريين راديكاليين علمانيين متطرفين، أو حلفاء الشيوعيين أو مشايخ النفط. ثم تطورت الصور تدريجيا في الثمانينيات لتصبح صور المسلمين / العرب المتطرفين، لكنها كانت مازالت تقدِّم علي أنها نقيض للمجاهدين المسلمين الأبطال من أتباع رامبو. ظل العرب الأمريكيون، المسلمون منهم والمسيحيون دائما علي معرفة بهذه التمثيلات، ومضي الباحثون والأكاديميون ينشرون دراسات قيمة تتناول تنمطيات العرب في أفلام هوليوود وفي الإصدارات

المطبوعة والتليفزيون. لكن ما يفوق دراسة تنمطيات العرب الخبيثة وتحليلها أهمية، هو أن أعمالا مثل «تغطية الإسلام» و«لقاءات ملحمية» قد أوضحت أهداف العمل علي انتشار شيطنة العرب والنتائج الأيديولوجية المباشرة المترتبة علي ذلك. تمدنا الآراء الثاقبة في الدراسات الناقدة للاستشراق والتنميطات والتبسيطات بأدوات لفهم كيف تخدم الإسلاموفوبيا أهدافا مماثلة لأهداف المخططات الأمريكية السياسية.

يتبع هذا الكتاب نموذج هؤلاء المفكرين الناقدين من خلال تفحص الإسلاموفوبيا في أمريكا الشمالية، مع التركيز علي فترة ما بعد ٩/١١، لكن أيضا يحدد أصول انتشار الإسلاموفوبيا بظهور عالم القطب الأحادي. مع سقوط الاتحاد السوفييتي وصعود الولايات المتحدة كقوة كوكبية مهينة لا يتحداها أحد، تمازجت أشكال سابقة من الاستشراق والعربوفوبيا مع أشكال جديدة من الإسلاموفوبيا السياسية. وفي واقع الأمر، وكما سنري، فمازال يتم تحديد العرب (في شمال أمريكا وأوربا والعالم العربي) بصفتهم مصدر جميع «الشرور» التي يتسم بها الإسلام. بيد أن الفرق بين أشكال الاستشراق السابقة و الإسلاموفوبيا المعاصرة هو أن «خطايا» العرب المسلمين المزعومة يعاقب عليها الآن جميع المسلمين حيث إنهم جميعهم يحمّلون مسئولية الإخفاقات، والتخلف واللاعقلانية التي كان المستشرقون قد اختصوا بها ثقافة العرب السّامية وتاريخهم. الإسلاموفوبيا في أمريكا الشمالية اليوم هي الاستشراق وقد تطاير وانتشر وارتقت منزلته لتصبح تلك النسخة الجديدة ما بعد الحداثية التي نعرفها اليوم. وفيما كان العرب ذوو البشرة السمراء في السابق يشكلون مجموعة الأنجاس المنبوذين، فقد أُسقطت تلك النظرة علي المسلمين بعامة وأُدمجت في لا وعي أمريكا العنصري.

ظل التيار السائد في أمريكا منذ وقت طويل يستهدف المسلمين السود ويخضعهم للتنميط. هذا علي الرغم من أن منظمات المسلمين السود، بما في هذا منظمة أمة الإسلام، ظلت تعمل بجد واجتهاد لتمكين جماعات السود الفقراء، وظلت في مقدمة المكافحين ضد تسرب المخدرات والكحوليات، وأنشطة العصابات إلي جماعات السكان السود. كما أن تلك المنظمات والأفراد يعملون كقوة أمن ذاتي، وتعليم ذاتي في أوساط

الأفروأمريكيين، وأيضا ظل لهم حضور إيجابي في إعادة تأهيل كثير من المسجونين السود الذين تعج بهم السجون الأمريكية بدرجة لا تتناسب مع أعدادهم في المجتمع الأمريكي. كانت شيطنة تنظيمات «المسلمين السود» في الماضي مرتبطة بشيطنة حركة السود التحررية، وأتت كرد فعل علي نجاح تمكين السود الذين رفضوا صراحة الذوبان في مجتمعات البيض وتبرئتهم من أجل إنهاء المظالم العنصرية التاريخية. بيد أنه، ومنذ وقت ليس بالبعيد، بدأ التيار السائد في أمريكا في شيطنة تنظيم «المسلمين السود» زاعما أنهم دعاة فتنة يشكلون أقلية داخل أقلية. قام الصحفيون، والمنظرون والناقدون والنشطاء بإبراز صورة لنظام السجون في أمريكا بصفته مركز المراكز لردكلة أمريكا السوداء والعمل علي تطرفها، ولم يخطر لهؤلاء المعلقين القول إن هذا الخطر لم يكن ليوجد إذا لم تقم الولايات المتحدة بسجن واحد من كل ثمانية رجال سود ممن هم في العشرينيات من أعمارهم. وبدلا عن ذلك، تؤكد منافذ التيار السائد للمهتمين بعلم الإجرام أن معتقلات أمريكا تحولت إلي مراكز لتجنيد المسلمين المتطرفين وتدريبهم حتي أن مؤسسة راند أصدرت تقريرا تحذر فيه من أخطار ردكلة نزلاء السجون الأمريكية السود.

الأسلوب الذي امتزج فيه تحرر السود بخطر الغزو الإسلامي يخاطب التوترات العرقية التي تشكل الأساس التحتي للإسلاموفوبيا. فبعد كل شيء فقد كانت المجموعة الأولي من المسلمين الذين استُقدموا إلي الولايات المتحدة هم الأفارقة المُسْترقّون. برهنت عدة دراسات قوية مقنعة علي أن رحلة العرب والمسلمين الأمريكيين لم تكن سهلة علي الإطلاق، وفيما تطغي المحن التي تعرض لها الأفارقة المسلمون المسترقون علي معاناة نظرائهم العرب وتفوقها كثيرا، فقد أُخضع المهاجرون العرب، وكان غالبيتهم من المسيحيين، لوابل من التشريعات العنصرية، وسوء المعاملة الاجتماعية، والتحيزات، والانتهاكات والتحرشات. تضمنت محن الأفارقة «اللينش» [أي الإعدام شنقا دونما محاكمة قانونية] في الولايات الجنوبية، والمثول أمام المحاكم في حالات التزاوج [زواج السود بالبيض]. لا يمكن فصل قضية «العرق» عن الاستشراق وكراهية العرب

والإسلاموفوبيا. ما يميز أعمال العنف العنصرية تلك ونماذجها الأصلية هي الأوضاع والسياقات السياسية التي فيها يتم استخدام الإسلاموفوبيا من أجل حشد الجماهير وتعبئتهم. ومثل أعمال العنف والإجراءات العنصرية التي يرتكبها البيض الأمريكيون من منطلق شعورهم بالسمو العرقي، ضد السود واللاتينيين فإن الإسلاموفوبيا جزء من تشكيلات أيديولوجية أوسع موجودة داخل ثقافة الولايات المتحدة وسياستها. أتت الإسلاموفوبيا بهذا الشكل المركب كمزيج أيديولوجي داخل ثقافة التسعينيات وسياستها مواكبة للعولمة وصعود الإمبراطورية الأمريكية. من ثم، ستوضح الفصول التالية كيف أن الإسلاموفوبيا هي أحدث تشكيل أيديولوجي يتم نشره من أجل تيسير السطوة الأمريكية، السطوة الأمريكية في لحظة أحاديتها القطبية.